مشروع النشر المشترك



جان جاك روسو

محاولة في أصل اللغات

تعريب : محمد محجوب

تقديم : د. عبد السلام المسدي

جان جاك روسو

محاولة في أصل اللغات

تعريب

محمد محجوب

تقديم

الدكتور عبد السلام المسدي

مشروع النشر المشترك



دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) - بغداد

الدار التونسية للنشر

تقديم

بقلم : الدكتور عبد السلام المسدي

تقديـــــم

بقلم : الدكتور عبد السلام المسدي

لو لم يكن من خصال هذا العمل الذي أقدم عليه زميلنا وصديقنا الاستاذ محمد محجوب الا امتثاله لوعي الفيلسوف بأن الترجمة مغامرة فكرية لا ينفك صاحبها يصارع بين اختيارين « أحلاهما مرّ » : إما الوفية وإما الحسناء ، لكان حريا بتقدير كل قارىء ، وهو بتقدير عالم اللسان لأحرى .

ولكن مهمة المترجم لم تكن هينة فقد حرص على أن يكون وفيا لروح النصّ في مناخه التاريخي وعلى أن يلائم بينه وبين روح القارىء المعاصر في حسه اللغوي ، ثم كأني به قد أخذ نفسه — في البحث عن الحسناء — بصياغة فيها من السبك والتدقيق ما ينزّلها منزلة الابداع ، فوفق عند جل مواطن الاشكال في أن ينسينا أننا نقرأ خطابا مترجما ، وهذا عيار كل ترجمة .

ولكن لمَ اتجه الأستاذ محمد محجوب صوب جان جاك روسو في قضية قد لا تكون خير ما يترجم عن هذه العبقرية التي انبرت خلال القرن الثامن عشر — عصر الأنوار — تتساءل عن مآل التقدم العلمي وتحذر من تراكم الثروات متقية شر مجتمع تتحول فيه المؤسسات الى أبنية متسلطة

لقد ندد روسو بكل حضارة تسلب الانسان أصالة طبعه فنادى بأعلى صوته أن الابتعاد عن الطبيعة الاولى منذر بفساد المجتمع البشري . أفلهذا كتب محاولته « في أصل اللغات » ؟

لقد كان الانسان مركز النظر في كل تأملات روسو حتى نزله منزلة المدار في كل فلسفة كونية، وهذا ما أنطق الفيلسوف الألماني « كانت » بالقول : « إن منزلة روسو في حقل الأخلاق كمنزلة نيوتن في حقل العلم » .

فان يكن روسو قد كتب ما كتب حول اللغات من هذا المنطلق، وإن يكن المترجم قد ترجم له ما كتب من ذات المنطلق فنعم ما يصنع الأستاذ محمد محجوب إذ يأخذنا في رفقته الى عالم روسو وقد مضى قرنان لم يتبدل فيهما ضرب من المعارف الانسانية كتبدل علوم اللغة ولا سيما منذ الثورة المنهجية التي تملكت المعرفة اللسانية الحديثة . ولكن اللسانيات نفسها قد أصبحت تجري حركة استبطانية على تاريخ المعارف اللغوية ، ذلك أن الفكر اللساني الغربي قد اتجه ـــ فيما اتجه إليه ـــ الى اعادة قراءة تراثه اللاتيني نافذا من خلاله الى التراث اليوناني أحيانا وهو بمثابة البحث في خبايا التاريخ اللغوي هدف أصحابه منه ادراك أسرار العلم اللساني الحديث من جهة ، وإبراز خصائص تفكير الانسان في أداته الكلامية عبر الحقب التاريخية من جهة أخرى .

فأن نقرأ اليوم ما قاله روسو حول الظواهر اللغوية متلمسين وجاهة الفحص ودقة المعرفة فذاك مسلك إن لم يخيب لنا ظنّا فلا أقل من أن يثير فينا الاشفاق ، أما أن نقرأ محاولة روسو في أصل اللغات لنعرف كيف كان كبير عصر الأنوار « يفكّر » في الأداة التي بها « يفكّر » ومن ثمة كيف كان « يفكر » مطلقا ، فذاك عين الفائدة وثمرتها القصوى ، وفي هذا المثوى يكمن فضل الأستاذ محمد محجوب فيما أقدم عليه .

ولكن لا يذهبن الظن إلى أن روسو في حديثه عن خصائص اللغات

قد جانب الحقيقة العلمية في كل ما يقول ، بل لعله لاطلاقه الخاطرة على رسلها قد أمسك بزمام بعض الحقائق فصورها على طريقته في التقدير فجاءت كالومضات الحصيفة ، فانظر اليه وهو يوازي بين الكلام في تحققه الادائي واللغة في وجودها الخطي : « إن الكتابة التي يبدو من مهامها تثبيت اللغة هي عينها التي تغيرها ، فهي لا تغير كلماتها بل عبقريتها ، إنما تعوض التعبير بالدقة فالمرء يؤدي مشاعره عندما يتكلم ، وأفكاره عندما يكتب ، فهو عند الكتابة ملزم بأن يحمل كل الالفاظ على معناها العام ولكن الذي يتكلم ينوع من الدلالات بواسطة النبرات ويعينها مثلما يحلو له (...) فإنما يكتب المرء التصويتات لا النغم ، غير أن النغم والنبرات ومختلف انعطافات الصوت في اللغة ذات النبر هي التي تمنح التعبير أقصى ما له من الطاقة وهي التي تقدر على تحويل الجملة من جملة شائعة الاستعمال الى جملة لا تستقيم في غير الموضع الذي هي فيه » .

ثم يختم استطراده مقررا في جزم : « إذا المرء أضحى كل شيء يقوله كما لو كان يكتبه لم يغد الا قارئا يتكلم » . وهذه من نفثات فكر ثاقب أعانته ناصية اللغة عليه ولم يزده رونق الترجمة الا تألقا .

وتتعدد نفثات الفكر عند روسو فإذا بخاطرة توقظ فينا ــ نحن أبناء الأمة العربية ــ بعض ما توقظ : « إن الأمة بقدر ما تقرأ وتتعلم تذوب لهجاتها » . وأي خاطرة أكثر بداهة عندنا من هذه ؟ ولكن كم من صراع يتحتم علينا خوضه أحيانا في سبيل إثبات ما هو من بديهيات الأمور !

ويبقى المشكل الذي كتب من أجله روسو هذه الخواطر : مشكل نشأة اللغات . فما شأنه ؟

إنه لا يكاد يوجد تفكير بشري تناول قضايا الظاهرة اللغوية من قريب أو بعيد إلا وقد أثار مشكلة أصل النشأة اللغوية حتى إن الخوض في هذا المشكل قد مثل القاطع المشترك بين مدارس التفكير النظري عبر تسلسلها التاريخي ، وهو في نفس الوقت قاسم مشترك

بين مجالات هذا التفكير نفسه إذ تجاذبه كل من الفلاسفة وأعلام الدين والباحثين في تاريخ الانسان وأصل نشأة العالم الذي يعيش فيه .

وأول ما نبادر إليه في هذا المضمار هو أن القضية وإن اختصت باللغة فإنها تكشف معضلة منهجية تتنزل خارج حوزة المسائل اللغوية بل إنها لا تطرح البتة عقدة فكرية مبدئية ، ذلك أن أصل نشأة اللغة من حيث هي قضية جوهرية ترجعنا مباشرة إلى مسألة أخرى تقوم مقام المولّد الأم وهي أصل نشأة الانسان ، وكثير من المفكرين المعاصرين ـ ولا سيما من رواد الفكر الغربي ـ مازالوا يغفلون عن هذا الارتباط العضوي .

والحقيقة أن العلم ما لم يقدم لنا فرضية راجحة في أصل نشأة الانسان فلن يتسنى بسط احتمال مرجح في أصل نشأة اللغة .

ويبقى موقفنا نحن ـ اللسانيين ـ من هذه القضية .

لقد أطرد في العرف البشري ـ وروسو على نهجه ـ أن يتناول الموضوع عن طريق الاستقراء الافتراضي القائم على الاحتمالات التقديرية ، وكلها مقاربات لا تتناقض في ذاتها مع البحث عن الحقيقة العلمية ، ولكننا اليوم نمسك في اللسانيات بحقيقة أخرى هي وحدها كفيلة بإلغاء القسط الأوفى من هذه الافتراضات التي قدمها المفكرون منذ زمن بعيد وما زال اخرون يقدمونها : ذلك أن الثابت اليوم قطعيا ـ بفضل البحوث اللسانية متضافرة مع الكشوف الانتروبولوجية والبيولوجية والعصبية ـ هو أن الفرد الادمي إذا أعوزته الفرصة لاكتساب لغة مّا في بيئة الأمومة خلال السنوات الخمس الاولى تعذر عليه بعد ذلك ان يكتسب القدرة على الكلام اطلاقا .

فكل نظرية متصلة بأصل نشأة اللغات البشرية تتضمن افتراض أن الانسان وجد كائنا حيا غير ناطق ثم ألهمته الطبيعة أو الحاجة أو أي قوة خارجية أن يتكلم باللغة فتكلم بها فإنما هي نظرية مدحوضة منتقضة . لذلك لم يكن بوسع عالم اللسان الا أحد أمرين : إما أن

« يعلّق » الموضوع مرجئا إياه ريثما يقدم له العلم نظرية جازمة في أصل نشأة الانسان ، وإما أن يتكل على مقولة أخرى غير مقولة العلم فيتبناها واعيا أنه قد تخلى عن قميص العلم ساعتها .

د . عبد السلام المسدي

إلى

يزيد

رابع أعياده،

وأعيادها

وأعيادي

ديسمبر 1984

جان جاك روسو
حياته. أعماله

1712 ــ ميلاد ج . ج . روسّو ، وهو الابن الثاني لاسحاق روسّو ، الساعاتي ، ولسوزان برنار، وذلك بمدينة جنيف .

وفاة والدته في 7 جويلية من السنة نفسها ، وتعهّد سوزان روسّو بتربيته .

1722 ــ مغادرة اسحاق روسّو جنيف ، واقامة ج . ج لدى السيد لامبارسيي .

1724ــ5 ــ عودة ج . ج إلى جنيف، حيث يتدرّب لدى عدل ثمّ لدى نقّاش .

1728 ــ لدى عودته من نزهة ، يفاجأ ج . ج . روسّو بأن تقفل دونه أبواب المدينة قبل موعدها العاديّ : « ... فأقسمت في مكاني بأن لا أعود أبدا إلى عرفي ... » (*) .

★ ج . ج . روسّو ، الاعترافات ، السفر الأوّل ، القسم الأوّل ، الكتاب الأوّل ، فلاماريون ، باريس ، بدون تاريخ ، ص : 43 .

ـ يلتقي روسو ، في 21 مارس من السنة عينها ، بالسيّدة وارانس ب آنّاسي . ثمّ يتجه إلى تورين حيث يعتنق الكاثوليكية .

1729 ـ 1739 ـ عودة روسّو إلى السيدة وارانس بآناسي . تنقلات عدة وتقلبات بين مهن وفنون مختلفة وخاصة منها الموسيقى حيث اشتغل بتدريسها . استقرار روسّو بشارمات (1737) دراسة عصاميّة (1739) .

1742 ـ القطيعة النهائيّة مع السيّدة وارانس ، والتوجه إلى باريس .

1742 ـ 1743 ـ الالتقاء بديدرو .

ـ مشروع متعلق باختراع علامات موسيقية جديدة .

ـ روسو كاتبا لدى سفير فرنسا بالبندقية .

ـ صدور مقال له في الموسيقى الحديثة .

1744 ـ روسّو في باريس من جديد.

1745 ـ دخول روسّو في علاقة مع تيريز لوفاسّور .

1746 ـ 1747 ـ ولادة ابن روسّو الأوّل ، حيث يودع مقرّ « الأطفال الضّائعين » .

1749 ـ مشاركة روسّو في **الموسوعة** ، بمقالات عن الموسيقى .

1750 ـ أكاديمية ديجون تتوّج مقال روسّو « **في العلوم والفنون** » .

1753 ـ « **رسالة في الموسيقى الفرنسية** » ، وقد كان من صداها لدى القراء أن شنق روسّو ـ صورته .

1754 ـ العودة إلى جنيف واستعادة روسّو حقوقه كمواطن من جنيف .

1755 ـ مقال **في أصول اللامساواة ما بين الناس** .

1757 ـ جدل مع الموسوعيين، وخصومة مع ديدرو .

1761 ــ مخطوط **العقد الاجتماعي** .

1762 ــ **اميل** ، ويقابل هذا الكتاب بمنع البرلمان له ، فيهرب روسّو ، ويحرق كتاب اميل وكتاب العقد الاجتماعي .

1766 ــ روسّو في انقلترا صحبة دافيد هيوم . ثم يختصمان .

1768 ــ زواج روسّو من تيريز لوفاسّور .

1770 ــ قراءة علنية لكتاب **الاعترافات** ، في باريس .

1775 ــ **روسّو حاكما على جان جاك** .

1776 ــ الأحلام .

1778 ــ وفاة ج . ج . روسّو بـ« ارمنيونفيل » (2 جويلية على الساعة الحادية عشرة صباحا) .

« Tâchons de suivre dans nos recherches l'ordre même de la nature. J'entre dans une longue digression sur un sujet si rebattu qu'il en est trivial, mais auquel il faut toujours revenir, malgré qu'on en ait, pour trouver l'origine des institutions humaines »

« فلنعمل على أن نساير في بحوثنا نظام الطبيعة ذاته . وإني لمقدم هنا على استطراد طويل في موضوع قد أكل عليه الدهر وشرب حتى صار مبتذلا . ومع ذلك ، فلابد من الرجوع إليه دائما ، حتى نقف على أصل المؤسسات الإنسانية » .

ج . ج روسو
محاولة في أصل اللغات
الفصل الثامن

تصدير المترجم

ما الذي يمكننا قوله في حدود التصدير الضيقة عن المقاربة الروسوية لأصل اللغات في المحاولة التي نقترح اليوم تعريبا لها ؟ سنقتصر على نقطتين اثنتين ، لعلهما تكونان مدخلا ييسر الولوج الى نص روسّو أو يخفف على الأقل مما يقارن الالتقاء الأول به من صدمة مضاعفة : التباس غرضه وغربة عبارته . فنسأل عن موضوع المحاولة وعن وحدة قصدها العام وذلك سعيا الى ادراك مدى تأثير « التداخل المشكلي » على العلاقة بين مسألة « سلطان الموسيقى على القلوب » ومسألة « أصل اللغات » ، ثم ادراك مدى تأثير التداخل المشكلي بين هاتين المسألتين باعتبارهما مسألتين تقنيتين، أو باعتبارهما مسألتين مختصتين، على الاقل، من جهة، والمسألة العامة أو المسألة الفلسفية لاصل المجتمعات، ولمدى ارتباط بنياتها بلغتها

ذلك أنه تأتلف في محاولة روسّو في أصل اللغات أوجه عدّة وأبعاد مختلفة من فكره :

فهو الفيلسوف ، متسائلا عن وضع اللغة وأصلها ، وعن بنية المجتمعات وطبعها ، وهو كذلك الفنان المجادل في الرّسم التصويري والمحاكاة الموسيقية من حيث اثر جمالها في القلوب : فكيف تتوحّد هذه المقاصد إذن ، بحيث تؤدّي إلى طرح مشكل أصل اللغات في علاقة حميمة بأصل المجتمعات ، وتؤدّي إلى تصوّر التعبير اللغوي في علاقة حميمة بالتعبير الفني موسيقى ورسما ؟

بين البحث عن وسائل تبليغ أفكارنا ، كتخطّ لحدود العزلة وخروج من عدم الحاجة ، والطغيان على المجال الخاص الذي تتركه الحياة المدنيّة للآخر ، من خلال الاقناع كخلق للحاجة ، تمتدّ المحاولة في أصل اللغات ، حاكية بذلك قصة المجتمع وعارضة من مشاهد تكوّنه ما يكاد يلهيك عن اللّغات وأصلها . فهلّا تكون إذن محاولة في أصل المجتمعات من خلال المنشور اللغوي ؟ ولكن مثل هذا المسعى يستلزم أن يكون المنشور اللغوي قد ناله بعد من التحليل والتركيب ما حصل به على مشروعيته المرجعية التي يقدر بها على أن يمثل منظورا أو منظارا يمكن تسليطه على الموضوعات المختلفة . ولكن شيئا من كل ذلك لم يحصل بعد .

فهل يكون الكتاب إذن محاولة في النظر إلى أصل اللغات من خلال منشور أصل المجتمعات ، مثل هذا المسعى يقتضي أن يكون المنشور المجتمعي قد ناله ما لم ينل المنشور اللغوي ، بحيث أصبح له من التقاليد ما يؤهله لكي يكون منظارا يسلّط على الظاهرة اللغوية ، منشئها وتاريخها وعلاقاتها بغيرها من الظواهر .

وانّ المرء لاميَل إلى الانخراط في صفّ هذا الافتراض الثاني ، إذ تؤكّده عدّة البانات ، لعل اهمها ذاك الذي يعمد به روسّو إلى الاجابة عن السؤال المتعلق بأصل المؤسّسات الانسانيّة : « وانّي لمقدم هنا على استطراد طويل ، في موضوع قد أكل عليه الدّهر وشرب حتى صار مبتذلا ؛ ومع ذلك فلا بدّ من الرّجوع إليه دائما ، حتى نقف على أصل المؤسسات الانسانية » .

يتحدّد هذا الموضوع إذن على أنه المرجع والشاهد والحكم ، في كل ما يتعلّق بالمؤسّسات الانسانيّة عامّة ، وبالمؤسسة اللغوية على وجه الخصوص . ولكنّ الاتصال بهذا المرجع والعودة إليه لا تتمّ ضمن المحاولة إلا على وجه الاستطراد . ولعل الشأن في الاستطراد أنّ ما له من الشرعية لا يفوق من بعض الوجوه ما للشّجون التي للحديث . فان كان ذلك ، فان المرور بمنعطف « المجتمعات الأولى » لا يكون إلا اصطناعا لا خير فيه . ولكنّ الأمر على خلاف ذلك . فلا ابتذال الموضوع ولا طول الاستطراد بمغنيين لنا عن الانصراف إلى أصل المجتمعات . بل يظلّ الوقوف على أصل المؤسّسات الانسانيّة بما فيها المؤسّسة اللغوية مرهونا بالتذكير بمعطيات قد « أكل عليها الدّهر وشرب » .

بذلك تتبنى المحاولة في أصل اللغات قولا يتضمن في كل أجزائه إشارة الى منجز ، ويتدرّج شوقا إلى أسس الأصل ، من أجل المرور به . فيكون الفصلان التاسع والعاشر

أوّلي الفصول وآخريها ، ونقطة انطلاقها ومآلها ، متوسطين بذلك مسار الفصول العشرين ، لكأنهما من كل واحد منها المدخل والمخرج . ولا يكون الاستطراد ساعتها شجن حديث قد كان يمكن الاقتصاد فيه ، بل قصد شوق تنشدّ إليه الرّحال :

فأولى المشاهد مشهد الشوق ومشهد الحاجة ، إذ يطلّ منهما المتوحد على الغير اطلالة الذي « تملّكه الرّعب » فحاجته نفي الآخر ، وهمّه الابتعاد عنه ، ولكنّ حدّه الطبيعة. لا تتولّد اللغات إذن من الحاجات الطبيعية ، « فمن غير المعقول أن يكون مما يفرّق بينهم ما يجمعهم » .

وثاني المشاهد مشهد الشوق الى الاخر، حبا أو كرها، شفقة أو غضبا. فحاجة الانسان هي الاخر وهمّه الفعل فيه . وما بغير هذا الوجه تتولّد اللغات : « ان كلّ الأهواء تقرّب بين الناس الذين تجبرهم ضرورة البحث عن العيش على التباعد . فلا الجوع ولا العطش انتزعا منهم أوّل التصويتات . بل الحبّ والكره ، والشفقة والغضب . ان الثمار لا تفلت من أيدينا ، فيمكننا ان نتغذى بها من غير كلام ، كما أننا في صمت نطارد الفريسة التي نقتاتها . ولكن ، إذا ما أردنا التأثير في قلب شاب ، أو صدّ معتد أثيم ، فان الطبيعة تملي علينا نبرات وصرخات وأنّات » .

تبدو اجتماعية الانسان إذن محدّدة لنطقه باللغة . ولكن هذه الاجتماعية لا تحقق من كل شروط اللغة الا احدها ، بل تقتضي اللغة أن يصاحب اجتماع الناس تولّد للأهواء والعواطف . ذلك أنّ الحاجات الطبيعية ، إذا ما افترضنا أنها قادرة على تجميع الناس ، وهو ما ليس دائما مؤكّدا ، لا تولّد من اللغات الا لغة الاشارة . أما لغة الصوت فلا تتولد الا متى فاض القلب بالعواطف . لذلك يحكي تولد الكلام تولّد الهوى ، ولذلك أيضا يحكي تبلّد الكلام تبلّد الهوى : فإذا تاريخ اللغات تاريخ تضاؤل حيويتها وتناقص شاعريّتها ، وإذا المجاز الأخّاذ الذي كان فيها قد أمسى حقيقة حادّة ، وإذا الفكر الحالم قد أضحى فكرا مستنيرا يحكم على أحلامه الأولى بأنها أخطاؤه الأولى .

ولعل هذا التبلّد قد بلغ قراره في الكتابة ، إذ تقلب على اللغات عبقريّتها ، فلا يبقى فيها من طاقة التعبير شيء ، بل يتحول كل ذلك الى وضوح في المعنى ودقة في الأفكار . هكذا ينتقل ايحاء نبرة النّطق الى صمم نبرة الرّسم وبكمها ، فما عادت تحمل من حياة اللغة الا ذكراها ، ولكنها ذكرى ميّتة :

« إذا المرء أضحى كلَ شيء يقوله كما لو كان يكتبه ، لم يغد إلا قارئا يتكلّم » .

هكذا آلت نغميّة اللغات الحديثة إلى علامات نغميّة منقطعة عن الواقع النغمي ، وهو ما يدلّ على أنها قد أضحت لغات مكتوبة ، بل وأنها حتى في نطقها مكتوبة ، « فلو تكلّم يهود اليوم بالعبريّة لما فهمهم أجدادهم » .

ولكنّ تتبّع أثر هذا الضياع التاريخي للغة لا يمكن ان يغني عن التساؤل عن أصلها . بل لعل ذلك التساؤل هو وحده الكفيل بأن يهدينا الى فهم آلية هذا الضياع . فالفصلان التاسع والعاشر، يتوليان تحديد التكون الطبيعي للغات الشمالية والجنوبية، وهو ما تعلن عنه نهاية الفصل الثامن عندما تؤكد : «فلنعمل على أن نساير في بحوثنا نظام الطبيعة ذاته!» لذلك تحكي الفصول الثمانية الاولى قصة تباعد اللغة عن الطبيعة . وذلك هو بالذات ما قصدنا . عند بداية هذا التصدير إذ قدّمنا ان استطراد الفصلين التاسع والعاشر « ليس شجن حديث قد كان يمكن الاقتصاد فيه ، بل قصد شوق تنشدّ إليه الرحال » . ذلك أن العود إلى أصل تكوّن اللغات شمالا وجنوبا قد ورد في المحاولة في وقت قد بلغ فيه وصف ضياع اللغة اخر ما آلت إليه هذه الظاهرة ، فهل من الصدفة أن ينتهي الفصل السابع بالتلويح إلى أبرد اللغات كلّها ؟ ان العود إلى الأصل الغابر قد تمّ في زمن سجّل فيه الحاضر من الحضور ما لم يعد معه الماضي إلا أشلاء من الذكريات . فلعل كثافة هذا الغياب (الذي للماضي) قد شحذت من الشوق ما اشتدّ به عزما على الوجهة الأولى . فإذا « القول في الأصل » ينتظم ساعة الأصل بعيد عن الذكر ، عظم ما كان دفينا عمل الشوق !

ولكن ما يصوّره القسم الثاني من الكتاب (الفصول من 12 إلى 19) هو تباعد الموسيقى عن الطبيعة . فنسأل : هل يتعلق الأمر بمجرّد سرد لحكاية الموسيقى ؟ وما مدى العلاقة بين هذه الحكاية وحكاية ضياع اللغة ؟

« انّ القصص الأولى والخطب الأولى والنواميس الاولى قد كانت شعرًا . فلقد وُجد الشّعر قبل النثر . ذلك ما حدث فعلا لأنّ الأهواء تكلّمت قبل العقل . وكذلك كان شأن الموسيقى . فلم يكن ثمّة في البداية من موسيقى الّا التنغم ومن التنغم غير ما يحدثه الكلام من تنوّع الصّوت » . لماذا كان القول في الموسيقى (اي في التنغم وفي المحاكاة الموسيقيّة) قد ورد في عنوان المحاولة كمجرّد موضوع من موضوعاتها : (محاولة في أصل اللّغات ، وفيها يتحدث [أيضًا] عن التنغم وعن المحاكاة الموسيقيّة) ، فانّ الفصل الثاني عشر يسوّي بينه وبين القول في اللّغات ، من خلال المماهاة بين كيفيّة انحطاطهما . فاذا الموسيقي اللّغة واللّغة الموسيقى ! « هل كان من العجب أنّ أوّل النحاة قد أخضعوا

صناعتهم إلى الموسيقى ، وأنهم كانوا في الوقت نفسه أساتذة في كلتا الصناعتين ؟ انّ لغة ليست لها إلّا المقاطع والتصويتات لا تملك إذن إلّا نصف ثروتها . صحيح انّها تؤدي أفكارا ولكنّها اذا ما أرادت أن تؤدّي مشاعر أو صورًا احتاجت مع ذلك إلى ايقاع وأصوات أي إلى نغم » .

هكذا تتوالى مشاهد قصّة الموسيقى عارضة تبدّد ثروتها من خلال انقطاعها عن التصوير والمحاكاة وانشغالها بالتصاوت والاصطناع . وذلك هو معنى الجدل العنيد بين روسو ورامو حول « سلطان الموسيقى على القلوب » ، أنغميٌّ هو أم تصاوتيٌّ . وراء ذلك الجدل جدلٌ في الطّبيعة والاصطناع ، وبين حيويّة العواطف وتلقائيتها من جهة وبرودتها القاتلة من جهة أخرى .

ولكنّ الأهمّ من كلّ ذلك ، هو أنّ وراء قصة الاصل والضياع التيْ هي قصّة اللّغة والموسيقى ، ثمّة قصّة « الانسان » و« الجنّة » . فهلّا وجب ساعتها أن تكون المحاولة عرضا لقصّة الانسان من خلال المنشور اللّغوي أي من خلال منشور التعبير بوجوهه التصويريّة المختلفة ، التّصوير اللّغوي ، والتصوير الموسيقي ، والتّصوير بالرّسم ، إلخ .؟

لا نريد أن نختم هذا التصدير السّريع ، قبل أن نذكّر بأنّ كلّ ترجمة انّما هي محاولة لانطاق النصّ في لغة غير لغته ، ولكن انطلاقا من شيء يظلّ شيئه هو لا شيئا آخر . ولذلك فهي عمل لا تنفكّ تتنازعه مقتضيات الامانة ، وذلك لا للحفاظ على المعنى فحسب ، فذلك أضعف الايمان ، ولكن للحفاظ كذلك على « المناخ » الأسلوبي وعلى « العوارض » التعبيريّة التي قد لا يكون لها كبير أثر في المعنى المباشر ، ولكن ما أعظم ما يكون أثرها وما أعظم ما تكون مناصرتها لمجهودات النّفاذ إلى بنية النّصّ العميقة . لذلك ، فلقد يعمد البعض ممّن ألفوا التسرّع في الفتوى إلى أن يعيب على هذا النصّ لجوءه الى تعابير قد لا تتماشى مع خفّة عبارة هذا العصر . ولكن ، « على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... » فلقد كان علينا أن نختار بين أن نغالي في اخضاع روسّو الى مقتضيات عصرنا أو أن لا نغالي .

ومهما يكن من أمر ، فانّنا لا نشكّ قطّ ، في أنّ هذا العمل مُلاقٍ من لدن قرّائه عينا وسطًا بَين عين الرضى وعين السخط؛ فحسبه أن يحظى من تلك العين بما قد يُصلحُ من شأنه ان قُدّر له أن يتدارك أمره ، أو من شأنِ صاحبه ان هو أقدم على مغامرة أخرى .

محمد محجوب

جان جاك روسو

محاولة في أصل اللغات

(وفيها يتحدّث عن النغم وعن المحاكاة الموسيقيّة)

الفصل الاول

في مختلف وسائل تبليغ أفكارنا

يميز الكلام الانسان عن الحيوانات. وتميّز اللّغة الأمم بعضها عن بعض، فلا تعرف نسبة انسان ما الّا بعد أن يتكلّم . ويحمل الاستعمال والحاجة كلّ امرىء على أن يتعلّم لغة بلاده . ولكن ما الذي يجعل تلك اللّغة هي لغة بلاده لا لغة بلاد أخرى ؟ انّ الاجابة عن ذلك تقتضي الرّجوع الى سبب ما ، يرتبط بالمكان ، ويكون سابقا على العادات عينها : فالكلام بما هو أوّل مؤسّسة اجتماعيّة ، انّما يدين بشكله الى أسباب طبيعيّة .

فما ان تعرّف بعضهم على بعض كائنا حاسّا ومفكّرا وشبيها به حتّى دفعه الشّوق وحاجة ابلاغه مشاعره وأفكاره الى البحث عن وسائل ذلك الابلاغ . وهذه الوسائل لا تستمدّ من غير الحواس، اذ هي الالات الوحيدة التي يمكن بها للمرء أن يؤثّر في غيره. وها هي العلامات الحسية تجعل اذن للتعبير عن الفكر. ان الذين اخترعوا اللغة لم يستخدموا هذا البرهان. ولكن حدسهم أوحى لهم بنتيجته .

ان عامّة الوسائل التي نقدر بها على التأثير في حواسّ الغير تنحصر في اثنتين هما الحركة والصّوت ، ويكون فعل الحركة امّا مباشرا باللّمس أو غير مباشر بالاشارة . ولمّا كان حدّ الفعل الاوّل طول السّاعد ، فانّه لا يمكنه التّبليغ عن بعد ، في حين يمتدّ الثّاني بقدر ما يمتدّ شعاع البصر . وهكذا لا يبقى الّا البصر والسّمع عضوين من أعضاء اللغة منفعلين بين أناس مشتتين .

ولئن كانت لغة الاشارة ولغة الصّوت طبيعيّتين على حدّ سواء ، فانّ الأولى أيسر (من الثّانية) وأقل خضوعا للمواضعات . فانّ ما يمثل الى أبصارنا من الأشياء أكثر ممّا يبلغ منها الى مسامعنا ، والاشكال أشدّ تنوّعا من الأصوات ، كما هي أشدّ تعبيرا وأكثر ايحاء في أقلّ وقتا. فمن الحب جاء الرسم كما يقال. ومنه الكلام أيضا ولكن بأقل سعدا. وها هو مزدريه لفرط ما هو غير راض عنه . فانّ له من أساليب التّعبير ماهو أحيا ؛ ألا فلكم شيئا تقول لحبيبها تلك التي ترسم في لذّة قصوى خياله ! ولكم كان يلزمها أن تستخدم من الأصوات لو عبّرت عن حركة العصا تلك !

انّ اشاراتنا لا تعني غير حيرتنا الطّبيعيّة . ولكنّي لا أريد أن أتحدّث عن تلك الاشارات . فالأوروبّيون ، دون سواهم ، يومئون عند الكلام : لكأنّ كلّ قوّة ألسنتهم قد آلت الى سواعدهم . ويزيدون عليها قوّة الرّئتين . وكلّ ذلك لا يجديهم نفعا . ففي حين يتخبّط الفرنسي ما أمكنه ، ويشبع هامته تعذيبا بكثرة ما يقول من الكلام ، ينحي التّركي غليونه عن فمه هنيهة ثمّ يتمتم بكلمتين ويجهز عليه بجملة واحدة .

لقد نسينا فنّ الاشارات منذ أن تعلمنا الاشارة : تماما مثلما أنّنا بالكثير من كتب النحو الانيقة لم نعد نفقه رموز المصريين. فان القدماء لم يألفوا التعبير بالألفاظ عن أحرّ ما كانوا يقولونه، بل بالاشارات. ما كانوا يقولونه ولكن كانوا يبدونه .

فلتفتحوا كتب التّاريخ القديم ، لتجدنّها تعجّ بهذه الأساليب من البرهنة التي تخاطب العيون فلا يفوتها أبدا أن تخلّف من الآثار ماهو أوثق ممّا تخلّفه الأقوال

التي كان بالامكان ابدالها بها . انّ الشيء ، اذا ما عرضناه قبل التكلّم عنه ، يهزّ الخيال هزّا ، ويثير حبّ الاطّلاع ويستولي على القلب شوقا وارتقابا لما سيقال . ولقد لاحظت أنّ الايطاليين والبروفانسيّين يجدون فيما تعوّدوه من سبق الاشارة عندهم على القول ، وسيلة يجعلون بها النّاس أحسن استماعا اليهم بل وأشدّ التذاذا بذلك . ولكن أبلغ اللّغات هي تلك التي الاشارة فيها قد قالت كلّ شيء من قبل الكلام . أفلم يمكن تاركان وثرازيبول وهو يهوى على رؤوس الخشخاش ، والاسكندر وهو يجعل ختمه على فم نديمه ، وديوجينس وهو يتجوّل أمام زينون ، أفلم يكن هؤلاء يعبّرون بأحسن من الكلام ؟ فأيّ تسلسل من الكلام قد كان يعبّر مثلما عبّروا عن تلك الأفكار بعينها ؟ وهاهو داريوس وقد توغل بجيشه في سيثيا يصله من ملك السيث ضفدعةٌ وعصفور وفأر وخمسة سهام ،هديّة يسلّمها الرّسول في صمت ثمّ ينصرف . ولكنّ خطابه الفاجع قد فهم ، فلم يزل أوكد على داريوس من الرّجوع الى بلاده كيفما أمكنه . فلتعوّضوا هذه الرّموز برسالة : ليتضاء لنّ هولها بقدر ما يتعالى تهديدها . ان هي الاهذر ، وما كان داريوس الّا مستخفّا بها .

عندما عزم لاوي افرايم على أن يثأر لموت زوجته ، فانّه لم يكتب الى قبائل بني اسرائيل ؛ بل قسّم الجثّة الى اثنتي عشرة قطعة وأرسل بها اليهم . فلمّا أن رأوا ذلك المشهد ، أسرعوا الى السّلاح صراخا بصوت واحد :

« كلّا ، ما كان مثل هذا أبدا في اسرائيل ، من يوم أن خرج آباؤنا من مصر الى اليوم » .

وأبيدت قبيلة بنجامان [1] . فلو كان ذلك اليوم لتقلّبت القضيّة بين المرافعات والمجادلات ، وربّما الفكاهات ، ولتأجّلت الى غير نهاية ، ثمّ لظلّ أبشع الآثام بدون جزاء . كذلك نذكر الملك ساوول حين عاد من الحرث ، فقطّع ثيران محراثه قطعا عديدة، ثم استخدم رمزا مماثلا ليحمل به بني اسرائيل على أن يخفوا لنجدة مدينة جاباس . انّ أنبياء اليهود ومشرّعي اليونان ، قد كانوا بما يقدّمونه غالبا من الاشياء المحسوسة للشّعب ، أبلغ ممّا لو خاطبوه بمقالات طويلة . وانّ الأسلوب

الذي يذكر به أثيني أنّ الخطيب هيبريد برّأ فريني المومس من دون أن يحتجّ للدّفاع عنها بكلمة واحدة لهو كذلك فصاحة صامتة ليس يندر أثرها في كلّ الأزمان.

وهكذا فانّنا نخاطب العيون أحسن ممّا نخاطب الآذان . فليس ثمّة من لا يشعر بصدق حكم هوراس في هذا الصّدد . بل إنّنا لنرى أنّ أبلغ الخطب هي تلك التي نضمنها أكثر ما يمكن من الصّور، وأن ليس للأصوات من القوّة أكثر مما لها عندما تفعل فعل الألوان .

أمّا إذا ما تعلق الامر بأن نؤثر في القلب ونلهب العواطف، فذلك شأن آخر تماما ؛ انّ الانطباع الذي يعقب الخطاب ، فيكون له وقع مضاعف ، ليخلّف في المرء أثرا مختلفا عن ذلك الذي تخلفه فيه رؤيته للشيء ذاته ماثلا لحما ودما فيحيط به في طرفة عين فلتتخيلوا وضعا جدّ عاديّ من الألم؛ فانه ليعسر أن يصل بكم التأثّر من مجرّد رؤية الشخص المصاب الى حدّ البكاء. ولكن دعوا له من الوقت ما يكفي ليحدثكم بكل ما يحس، اذن لتجهشن لتوّكم بالبكاء. وما بغير هذا الوجه تفعل فينا مشاهد التراجيديات فعلها [2]. ان التمثيلية الايمائية التي لا كلام فيها، هي وحدها تتركنا في دعة . أما الخطاب الذي ليس فيه ايماء فينتزع الدّموع منّا انتزاعا. للعواطف ايماءاتها ولكن للعواطف أيضا نبراتها . وان هذه النبرات التي تزلزل علينا الارض، والتي لا يمكن أن نصمّ عنها آذاننا لتتسلّل منها الى صميم القلب فتحمل اليه رغم أنفسنا الحركات التي تنتزعها وتجعلنا نحس بما نسمع. فلنستنتج اذن أنّ ما نراه من الاشارات يزيد من دقّة المحاكاة، ولكن اثارة الاهتمام أنجع بالاصوات .

ذلك ما يجعلني أعـتبر أنّه لو لم تكنْ لنا قطّ غير حاجات طبيعيّة لأمكننا جدّا أن لا نتكلّم أبدا وأن نتفاهم على التّمام بمجرّد لغة الاشارة ، ولكان بمقدورنا أن نقيم مجتمعات لا تختلف كثيرا عمّا هي عليه اليوم أو هي أصوب تدرجا نحو هدفها وأن نؤسس قوانين ونختار قادة ونخترع فنونا ونقيم التّجارة وباختصار أن نعمل من الأشياء بقدر ما نعمله منها بفضل الكلام. ان لغة رسائل « **السلام** » [3] لتحمل من دون ما خشيه للرقيب أسرار الغزل الشرقي عبر اشدّ

الاحاريم مناعة. وبكم الرحمان يتفاهمون فيما بينهم كما يفهمون كل ما يقال لهم بالاشارة تماما مثلما يمكن قوله بالكلام. فالسيد بيرير ومن مثله ممّن يعلمون البكم لا أن يتكلّموا فحسب ولكن ايضا ان يعوا ما يقولون ، إنّما هم مجبورون على أن يعلّموهم قبل ذلك لغة أخرى، لا تقل تعقيدا، يمكنهم بواسطتها أن يفهموهم تلك اللغة .

ويذكر شاردان أن الدّلالين في جزر الهند يمسك بعضهم بأيدي البعض ويغيرون من أساليب تلامسهم بحيث لا يتفطن اليهم أحد، فيعقدون بذلك كل صفقاتهم سرا على رؤوسي الملا، ومن غير أن يتبادلوا كلمة واحدة. ان هؤلاء الدلالين، وان فرضناهم عميا، صمّا، بكما، لن يكونوا اقل تفاهما فيما بينهم. وهو ما يبين أننا نقدر بالاقتصار على احد الحسين اللذين بهما فعاليتنا، على أن نجعل لانفسنا لغة .

ويظهر أيضا من الملاحظات عينها ان اختراع فن تبليغ افكارنا ليس مدينا للاعضاء التي تخدم هذا التبليغ بقدر ما يرجع الى ملكة تخص الانسان هي التي تجعله يستخدم لتلك الغاية اعضاءه بل تحمله، اذا ما انعدمت تلك الاعضاء، على ان يستخدم غيرها لعين تلك الغاية، هبوا للانسان هيئة ما، مهما كانت غير مكتملة. فانه سيكتسب لا محالة أقلّ أفكارا. ولكن يكفي ان يكون بينه وبين نظراته وسيلة ما للتواصل يقدر بها بعضهم على الفعل وبعضهم على الاحساس، حتى يتمكنوا في النهاية من أن يتبادلوا من الافكار بقدر ما عندهم منها .

• ان الهيئة التي للحيوانات لتفي بأكثر مما يحتاجه هذا التواصل. ومع ذلك فلا واحد منها استعملها. فليت شعري، هو ذا فرق مميز حقا! اني لا أشك قط في ان التي تعمل من الحيوانات وتعيش معا، لا سيما القنادس والنمل والنحل، تملك لغة طبيعية ما، تتواصل بها فيما بينها. بل ثمة حتى ما يدعو الى الاعتقاد بأن لغة القنادس ولغة النمل انما هي لغات اشارة ولا تخاطب الا العيون. ومهما يكن من أمر فان هذه اللغات وتلك، بما هي طبيعية، ليست مكتسبة. والحيوانات التي تتكلم بها انما تملكها منذ الولادة. ولكل الحيوانات نفس اللغات في كل مكان، فلا

تستبدّ لها ولا تحقق فيها أدنى تقدم. اما لغة التواضح فهي لغة الانسان وحده. هو ذا ما يجعل الانسان يحقق تقدما في الخير أو في الشر، وما يجعل الحيوانات لا تحقق منه شيئاً. ان مجرد هذا التمييز ليبدو عميق الابعاد : ويقال ان تفسيره يكون بالرجوع الى اختلاف الاعضاء. لكم أودّ معرفة هذا التفسير العجيب .

الفصل الثاني

. في أنّ أوّل اختراع للكلام ليس ناتجا عن الحاجات بل عن الأهواء.

ثمّة اذن ما يحمل على الاعتقاد بأنّ الحاجات قد أملت علينا أوّل الاشارات ، وأنّ الأهواء قد انتزعت منّا أوّل التّصويتات . ولعلّنا ، اذا ما تتبّعنا أثر الاحداث بالاعتماد على هذه التمييزات ، ملزمون بالتّفكير في أصل اللّغات بأسلوب مختلف جدّا عن الأساليب التي اتبعت الى حدّ الآن . انّ عبقريّة اللّغات الشرقيّة ، وهي أقدم ما هو معروف لدينا من اللّغات ، تكذّب تكذيبا مطلقا ما نتخيله عن تكوّنها كتدرّج في التعلم . فليست هذه اللّغات من المنهج والمعقول في شيء ، بل هي حيّة ومجازيّة يراد اقناعنا بأنّ لغة الأوّلين هي لغات هندسيّين في حين نرى أنّها لغات شعراء .

لابدّ أنّ ذلك هو ما كان . فانّهم لم يبدأوا بالتّفكير ، بل بدأوا بالاحساس . ويدّعي بعضهم أنّ البشر انّما اخترعوا الكلام للتعبير عن حاجاتهم . يبدو هذا الرّأي غير مقبول . فانّ المفعول الطّبيعي للحاجات الأولى انّما كان تفريق النّاس لا تقريب بعضهم من بعض. لقد كان ذلك ضروريّا لأن يمتدّ النّوع وأن تعمر الأرض

بسرعة ، اذ لولاه لتكدّس الجنس البشري في ركن من العالم ولظل ما بقي منه مقفرا. وينتج بوضوح من مجرّد ما ذكرناه ان أصل اللغات ليس سببه حاجات البشر الأولى. فمن غير المعقول ان يكون ممّا يفرّق بينهم ما يجمعهم. من أين يمكن ان يكون هذا الأصل اذن؟ هو من الحاجات الأدبيّة ومن الأهواء. ان كلّ الأهواء تقرّب بين النّاس الذين تجبرهم ضرورة البحث عن العيش على التّباعد . فلا الجوع ولا العطش انتزعا منهم أوّل التّصويتات ، بل الحبّ والكره والشفقة والغضب . انّ الثمار لا تفلت من أيدينا ، فيمكننا أن نتغذّى بها من غير كلام . كما أنّنا في صمت نطارد الفريسة التي نريد أن نقتاتها . ولكن ، اذا ما أردنا التّأثير في قلب شابّ ، أو صدّ معتد أثيم ، فانّ الطّبيعة تملي علينا نبرات وصرخات وأنّات . تلك هي أقدم الكلمات المخترعة ، وذاك هو ما جعل اللّغات الأولى شادية عاطفيّة قبل أن تكون بسيطة منهجيّة . انّ كلّ ما تقدّم لا يستقيم بدون تمييز . ولكنّي سأعود اليه فيما يلي .

الفصل الثالث

لابدّ أنّ اللّغة الاولى قد كانت مجازيّة .

لمّا كانت الأسباب الأُولى التي دفعت الانسان الى التكلّم هي العواطف ،فانّ تعابيرها الأُولى كانت استعارات. لقد كانت اللغة المجازية هي أول ما تولد أما الدّلالة الحقيقيّة فكانت آخر ما اهتدي اليه . فانّ الأشياء لم تسمّ باسمها الحقيقي الّا عندما تمّت رؤيتها في شكلها الحقيقيّ . ففي البداية لم يتكلّم النّاس الا شعرا ولم يخطر ببالهم أن يفكّروا الّا بعد زمن طويل .

ولكنّي أحسّ ههنا أنّ القارىء يستوقفني ويلتمس أن أُبيّن له كيف يمكن أن يكون التّعبير مجازيا قبل أن تكون له دلالة حقيقيّة ، اذ المجاز انّما يكون في تحوّل المعنى . وانّي لمقرّ بذلك ، غير أنّه يجب لفهمي أن تعوّض الكلمة التي ننقلها بالفكرة التي تقدّمها لنا العاطفة. فاننا لا ننقل الكلمات الا لأننا ننقل الافكار. فلو لم يكن ذلك لما كانت اللغة المجازية تعني شيئا. سأردّ إذن بمثال :

لو أنّ رجلا متوحّشا صادف غيره من المتوحّشين لفزع ، ثمّ لحمله فزعه منهم

على أن يعتبرهم أكبر منه وأقوى بحيث يطلق عليهم اسم العمالقة ؛ ثمّ انّه بعد عدّة تجارب سيجد أنّ هؤلاء العمالقة المزعومين لم يكونوا أعظم منه ولا أشدّ باسا وأن قامتهم لا تتناسب والفكرة التي كانت مرتبطة في ذهنه بكلمة عملاق : اذ ذاك سيخترع اسما يجمع بينه وبينهم كاسم الانسان مثلا ، وسيترك اسم العملاق الى الشّيء الكاذب الذي أثار انتباهه طوال مدّة وهمه . تلك هي الكيفيّة التي يتولّد بها المجاز قبل الحقيقة ، عندما تبهرنا الأهوال وتكون الفكرة الأولى التي تقدّمها لنا غير فكرة الحقيقة . انّ ما قلته عن الكلمات والأسماء ينطبق بدون صعوبة على الجمل . لمّا كانت الصّورة الوهميّة التي يقدّمها لنا الهوى هي أوّل ما ظهر لنا فانّ اللّغة التي تطابقها قد كانت أيضا أوّل ما اخترع ثم أصبحت تلك اللّغة مجازيّة عندما تعرّف الفكر المستنير على خطئه الأوّلي ، فلم يستعمل تلك العبارات الّا بصدد عين الأهواء التي أنتجتها .

الفصل الرابع

في الخصائص المميّزة للّغة الأولى ، وفي التغيرات
التي لابدّ أنّها مرّت بها .

تخرج الأصوات البسيطة من الحنجرة بالطّبع ، ويكون الفم بالطبع مفتوحا بقدر أو بآخر ولكنّ تغايرات اللّسان والحنك ، وهي التّغايرات التي تحوّل النّطق ، تتطلّب شيئا من الانتباه والدربة. فانّنا لا ننجزها اذا ما لم نبتغ انجازها . انّ كلّ الاطفال في حاجة الى تعلّمها والكثير منهم لا يقدرون على ذلك بسهولة . وفي كلّ اللّغات ، فانّ أحرّ مواضع التعجّب غير منطوق بها ، والصراخات والأنّات مجرّد تصويتات ، أمّا البكم أي الصّمّ ، فانّهم لا ينطقون الّا بأصوات غير متمفصلة . بل انّ الأب « لامي » لا يتصوّر حتّى أنّ النّاس قد كانوا يقدرون على اختراع غير تلك الأصوات لولا أنّ اللّه قد تعمّد تعليمهم الكلام . فالتّمفصلات قليلة العدد ولكنّ عدد الأصوات غير محدود ، ويمكن للنبرات التي تخصّها أن تتضاعف الى ما لا نهاية له . انّ كلّ الأصوات الموسيقية هي كذلك نبرات . صحيح أنّه ليس لنا منها في الكلام غير ثلاثة أو أربعة ولكنّ الصّينيّين يملكون منها أكثر من

ذلك بكثير . وفي مقابل ذلك فانّ ما بهم من الحروف الصّوامت يقل عمّا لنا . فان أنتم أضفتم الى هذا المصدر من التّركيبات ، مصدر الأزمنة أو الكميّة لم تحصلوا على المزيد من الكلمات فقط ، بل كذلك على مقاطع متنوّعة تزيد عمّا تحتاجه أثرى اللّغات .

لست أشكّ أبدا في أنّ أولى اللغات لو أنّها مازالت حيّة لظلّت بقطع النّظر عن مفرداتها وعن قواعد تركيبها — محتفظة بخصائص أصيلة تميّزها عن كلّ اللّغات الاخرى . فلا يكفي أنّ كلّ أساليب التّعبير في هذه اللّغة لابدّ لها أن تكون مجازات ومشاعر وصورا ، بل ينبغي لها أن تطابق في جزئها الآتي موضوعها الأوّل ، وأن نعرض على الحواس والذهن ما يكاد يكون محتوما من انطباعات الهوى الذي يبتغي البلوغ الينا .

لمّا كانت التصويتات الطبيعية غير متمفصلة ، فانّ الكلمات ستكون في تلك اللّغة قليلة التمفصل . فبضعة من الحروف الصّوامت اذ تتخلّل تلك التّصويتات ، معمّرة بذلك فجوتها ، تكفي لجعلها سلسة سهلة النّطق. وفي مقابل ذلك فانّ الأصوات ستكون شديدة التّنوّع كما سيضاعف تنوّع النّبرات من عدد الأصوات عينها . ستكون الكمّيّة والايقاع مصدرين جديدين للتّركيب بحيث انّ الأصوات والتصويتات والنبرة والعدد وهي من الطبيعة لما كان فعلها يكاد يكفي فعل التمفصلات وهي من التواطؤ ، فانّنا سنغنّي عوضا عن الكلام . ان أغلب الكلمات الجذرية ستكون أصواتا تحاكي نبرة الأهواء أو مفعول الاشياء الحسيّة : فتظهر فيها الحاكية الحسيّة باستمرار .

سيكون لهذه اللّغة الكثير من المترادفات للتعبير عن الشّيء نفسه في نسبه المختلفة (4) . ليكوننّ لها القليل من الصّيغ الظّرفيّة ومن الكلمات المجرّدة للتّعبير عن تلك النّسب عينها . ولكن ليكوننّ لها من كثرة صيغ التّكبير وصيغ التّصغير ومن الكلمات المركبّة ومن أدوات التحسين الزوائد ما تمنح به من حسن الايقاع للمقطوعات المتناغمة ومن التّصريح للجمل ، ليكوننّ لها الكثير من مواضع اللّحن والشّذوذ . لتفرّطن في التّناسب النّحوي لتتمسّك بعذوبة الصّوت وبالعدد

والتناغم وجمال الأصوات . ليكوننّ لها عوض الأدلّة حكم ، ولتقنعنّ من دون أن تسعى الى اقناع ، ولترسمنّ من دون برهان ، ولتشبهنّ اللّغة الصّينيّة من بعض الوجوه واليونانيّة من غيرها والعربيّة من غيرها . فلتوسّعوا هذه الافكار الى كلّ تفرّعاتها، ستجدون إذ ذاك أنّ كتاب اقراطيلوس لافلاطون ليس من السّخافة بالقدر الذي يبدو عليه .

الفصل الخامس

في الكتابة

انّ كلّ من يدرس تاريخ اللّغات وتقدّمها واجد أنّه بقدر ما تزداد رتابة التّصويتات تتضاعف الحروف الصّوامت ، وأنّنا نستعيض عمّا يمّحي من النّبرات وعمّا يتساوى من الكمّيات بتركيبات نحويّة وتمفصلات جديدة . ولكنّ هذه التغيّرات لا تتمّ الّا بمفعول الزّمن . فبقدر ما تنمو الحاجات وتتعقّد الأعمال وتمتدّ الأنوار تغيّر اللّغة من طابعها فتصبح أشدّ معقوليّة وأقلّ عاطفيّة ، وتعوّض المشاعر بالافكار وتكفّ عن مخاطبة القلب لمخاطبة العقل . ومن ثمّ بالذّات تنطفىء النّبرة وتتعدّد المقاطع ؛ فتصير اللّغة أشدّ ضبطا وأشدّ وضوحا ، ولكنّها تصير أيضا أفتر ، وأصمّ وأبرد . يبدو لي هذا التدرّج طبيعيّا جدّا . ثمّة طريقة أخرى في المقارنة بين اللّغات وفي الحكم على قدمها ، وهذه الطّريقة تؤخذ من الكتابة ، وذلك بحسب تناسب عكسي مع مدى اكتمال هذا الفنّ . فبقدر ما تكون الكتابة خشنة بقدر ما تكون اللغة قديمة . انّ الأسلوب الأوّل في الكتابة لم يكن رسم الأصوات ، بل كان رسم الأشياء نفسها ، رسما مباشرا مثلما كان

يفعل المكسيكيّون ، أو رسما غير مباشر مثلما كان يفعل المصريون قديما . وتوافق هذه الحالة (زمن) اللّغة العاطفّية ، وهي تفترض أنّ المجتمع قد وجد بعدُ ، كما تفترض أنّ الأهواء قد ولدت بعد بعض الحاجات.

أمّا الأسلوب الثّاني فيكون بتمثيل الكلمات والقضايا بأحرف اصطلاحيّة ، وهو ما لا يمكن انجازه الّا عندما يبلغ تكوين اللّغة كماله ، وعندما يتّحد شعب برمّته في ظلّ قوانين مشتركة : فقد توفّر بعدها هنا اصطلاح مضاعف : ذلك شأن الكتابة الصّينيّة ، وذلك هو بحقّ رسم الأصوات ومخاطبة العيون .

وأمّا الأسلوب الثّالث فيكون بتقطيع الصّوت المتكلّم الى عدد معيّن من الأجزاء الأساسيّة التّصويتيّة أو التّمفصلية ، بحيث يمكن استخدامها في تركيب كلّ ما يمكن تخيّله من الكلمات والمقاطع . انّ هذا الأسلوب في الكتابة ، وهو أسلوبنا ــ لا بدّ أنّه قد تخيّلته شعوب تشتغل بالتّجارة ، اضطرّها كونها تسافر الى عديد البلدان وكونها ملزمة بالتكلّم بعدّة لغات ، الى اختراع أحرف تكون مشتركة بين كلّ اللّغات . ليس هذا بالذّات رسما للكلام ، بل هو تقطيع له .

انّ هذه الأساليب الثّلاثة في الكتابة ، توافق بمقدار من الدّقة مختلف الحالات الثّلاثة التي يمكن أن نعتبر عليها الأفراد المجتمعين ضمن أمّة : فرسم الأشياء يناسب الشعوب المتوحّشة ، وعلامات الألفاظ والقضايا تناسبُ الشّعوب الهمجيّة والأبجديّة تناسب الشعوب المدنيّة .

لا يجب اذن أن نعتقد أن هذا الاختراع الاخير دليل على اغراق الشعب المخترع في القدم بل انه ليجوز على العكس من ذلك ان يكون الشعب الذي وجده انّما قصد الى تواصل أيسر مع شعوب تتكلّم لغات أخرى ، وهي شعوب قد كانت على أيّ حال معاصرة له ، وقد كان بامكانها أن تكون أقدم منه . لا يمكننا ان نقول نفس الشّيء عن الاسلوبين الآخرين ، ولكنّي أعترف بأنّنا ، اذا ما تقيدنا بما نعرفه من التّاريخ والوقائع ، فانّ الكتابة الأبجديّة تبدو متساوية في القدم مع أيّ كتابة أخرى . ولكنّه من غير المستبعد أن يكون الأمر راجعا الى نقص في الآثار المتبقّية من الأزمنة التي لم توجد فيها الكتابة .

انّه لمما يقلّ احتماله أن يكون أوّل من فكّروا في تحليل الكلام الى علامات أساسيّة قد حقّقوا منذ البداية تقسيمات تامّة الدقّة . وعندما تفطّنوا بعد ذلك الى نقص تحليلهم ، عمد بعضهم ، مثل اليونانيّين ، الى مضاعفة أحرف أبجديّتهم ، في حين اكتفى البعض الآخر بتنويع معانيها أو أصواتها بواسطة أوضاع أو تركيبات مختلفة . انّ نقوش آثار تشالمينار التي صمّم لنا منها شاردان رسوما ، لتبدو مكتوبة على هذا النّحو . فانّنا لا نتميّز ضمنها الّا شكلين أو حرفين [5] . ولكنّهما يتّخذان أحجاما مختلفة وأوضاعا متعدّدة . لا بدّ أن هذه اللّغة المجهولة التي يكاد المرء يذهل من قدمها ، قد بلغت آنذاك كمالها ، خاصّة اذا ما اعتبرنا كمال الفنون التي يشهد لها جمال الاحرف ، الصّروح الرّائعة التي توجد بها تلك الكتابات . وانّي لفي حيرة من فرط قلّة ما يذكر النّاس هذه الآثار العجيبة : فانّي لأقرأ وصفها عند شاردان ، فما أظنّني الّا قد انتقلت الى عالم آخر . يبدو لي أنّ كلّ هذا يدعو بحدّة الى التّفكير [6] .

لا يتبع فنّ الكتابة فنّ الكلام أصلا . بل هو يتبع حاجات من طبيعة أخرى ، وقد تبكّر ولادتها عند الشّعوب وقد تتأخر ، وذلك بحسب ظروف مستقلّة تماما عن أعمار تلك الشعوب . ويحتمل أن لا تكون تلك الحاجات قد ظهرت أصلا لدى بعض الأمم المغرقة في القدم . انّنا نجهل عدد القرون التي ظلّ خلالها فن الحروف الهيروغليفية هو الخطّ الوحيد تقريبا لدى المصريين. ولقد قام البرهان على أن مثل ذلك الخطّ يمكن أن يكفي شعبا متمدّنا، ويشهد على ذلك مثال المكسيكيّين الذين كانت كتابتهم أقلّ يسرا من الكتابة الهيروغليفية .

انّه لمن اليسير علينا ، عندما نقارن بين الابجديات القبطيّة والسريانية أو الفينيقية أن نجزم بأن إحداها متأتّية من الأخرى . وقد لا يكون من الغريب أن تكون الأبجديّة الأخيرة هي الأصل أو أنّ أحدث الشعوب قد كان علّم في هذا الصّدد أقدمها . وواضح أيضا أنّ الأبجديّة اليونانيّة متأتّية من الابجدّية الفينيقيّة بل انّنا لنرى أنها لا بدّ قد صدرت منها . وسواء أكان كاد موس هو الذي جاء بها من فينيقيا أو أنّ غيره هو الذي جاء بها ، فانّه يبدو مؤكّدا في كلتا الحالتين أن

اليونانيّين لم يسعوا الى جلبها وأنّ الفينيقيّين قد جاؤوا بها بأنفسهم ذلك أنّهم كانوا الأوائل من بين شعوب آسيا وافريقيا ، بل وربّما الوحيدين [7] الذين تاجروا في أوروبّا ، وقد جاؤوا الى بلاد اليونان قبل أن يذهب اليهم اليونان : وهو ما لا يدلّ أبدا على أنّ الشعب اليوناني ليس كمثل شعب فينيقيا في القدم .

لم يكتف اليونانيون في البداية بتبنّي أحرف الفينيقيين ، بل تبنّوا حتّى اتّجاه السّطر عندهم من اليمين الى الشّمال ثمّ عنّ لهم من بعد ذلك أن يخطّو خط المحراث أي أن يستأنفوا السّطر تناوبا من الشّمال الى اليمين ثمّ من اليمين الى الشّمال [8] . وأخيرا كتبوا مثلما نكتب اليوم ، أي باستئناف كلّ السطّور من الشّمال الى اليمين . ليس في هذا التقدّم من شيء الّا وهو طبيعيّ . فانّ الكتابة الحراثيّة هي من دون نقاش أيسر الكتابات قراءة . بل وانّي لمندهش من عدم اقرارها مع الطّباعة . ولكن لمّا كانت عسيرة الكتابة باليد ، فلا بدّ أنّها اضمحلت عندما تعدّدت المخطوطات. غير أنه ليس يلزم من أنّه ان كانت الأبجديّة اليونانية متأتية من الابجدية الفينيقية أن اللغة اليونانية متأتية من اللغة الفينيقية. فان احدى هاتين القضيتين ليست لازمة أصلا عن الاخرى. ويبدو أن اللغة اليونانية قد كانت بعد قديمة جدّا في حين أن فنّ الكتابة كان حديثا بل وناقصا عند اليونانيين. فلم يكن عندهم من الحروف، ان كان لهم منها، أكثر من ستّة عشر حرفا، وذلك الى حدّ حصار «طروادة». ويقال ان بالاماد قد أضاف اليها أربعة وأن سيمونيد أضاف الاربعة الاخرى . انّ كل هذا قد جرّنا الى ماض بعيد بعض الشيء . وعلى العكس من ذلك فانّ اللّغة اللاّتينيّة ، وهي أحدث من اليونانيّة ، قد حظيت منذ ولادتها تقريبا بأبجديّة كاملة لم يستعملها الرّومان الأول مع ذلك الا نادرا، اذ أنهم لم يشرعوا الا مؤخرا جدا في كتابة تاريخهم وأنهم لم يكونوا يسجلون خماسياتهم الا بواسطة مسامير .

وعلى كلّ فليس ثمّة كميّة من الحروف أو من عناصر الكلام محدّدة تحديدا مطلقا . فلبعضهم أكثر ولبعضهم أقلّ بحسب اللّغات وبحسب مختلف التّعديلات التي تدخلها على التّصويتات وعلى الحروف الصّوامت . انّ أولئك الذين لا

يحسبون الأخمسة تصويتات لمخطئون كثيرا فقد كان لليونانيّين منها سبعة، وللرّومان الأول ستّة [9]. ويحتسب جماعة بور روأيال عشرة منها، أمّا السّيد دوكلو فسبعة عشر. وانّي لا أشكّ قطّ في أنّه قد كان يمكننا أن نجد منها أكثر ممّا وجدنا بكثير لو أنّ العادة كانت رهّفت الأذن وروّضت الفم على مختلف ما في وسعهما من التّغايرات فعلى قدر رهافة العضو يتفاوت ما نجده من التّغايرات بين التّصويت « A » حادّا والتّصويت « O » غليظا، أو بين التّصويت « I » والتّصويت « E » مفتوحا، الخ ... ذلك ما يحسّ به كلّ واحد منّا عندما ينتقل من تصويت الى آخر بصوت متّصل ومتدرج. فانّه يمكننا أن نضبط كثيرا أو قليلا من تلك الدّرجات، وان نرمز اليها بأحرف خاصة، وذلك بقدر ما يكون فعل العادة فينا قد جعلنا حساسين بها. وتخضع تلك العادة لما هو مستعمل في اللّغة من أنواع الأصوات التي يألفها العضو من حيث لا يشعر. ويمكن أن يقال نفس الشّيء عن الحروف المفصلة أو الصّوامت. ولكن أغلب الأمم لم يكن ذلك هو فعلها بل أخذ بعضها أبجدية البعض الآخر ومثّل بنفس الأحرف تصويتات وتمفصلات مختلفة جدّا، ممّا يجعل المرء مهما بلغ من الدقّة في رسم الكلمات يقرأ دائما اللّغة التي ليست لغته قراءة مضحكة، اللّهم الّا أن يكون قد تدرّب عليها كثيرا.

ان الكتابة التي يبدو من مهامّها تثبيت اللّغة، هي عينها التي تغيّرها. فهي لا تغيّر كلماتها بل عبقريتها. انها تعوّض التعبير بالدّقة. فالمرء يؤدّي مشاعره عندما يتكلّم وأفكاره عندما يكتب. فهو عند الكتابة ملزم بأن يحمل كلّ الالفاظ على معناها العامّ، ولكنّ الذي يتكلّم ينوّع من الدّلالات بواسطة النّبرات، ويعيّنها مثلما يحلو له. فما هو عكتف من تقلّص ما كان يعوقه عن وضوح العبارة، بل زاد ما يعطي متانتها. ولا يمكن للغة نكتبها فقط أن تحتفظ طويلا بحيويّة تلك التي نتكلمها فقط. فانما يكتب المرء التصويتات لا النغم غير أن النغم والنبرات ومختلف انعطافات الصوت في اللغة ذات النبر، هي التي تمنح التعبير أقصى ماله من الطاقة، وهي التي تقدر على تحويل الجملة من جملة شائعة الاستعمال الى جملة لا تستقيم في غير الموضوع الذي هي فيه. أما الاسباب التي تتخذ ــ للتعويض

عن ذلك.فما هي إلّا توسيع من مجال اللغة المكتوبة وتمديد لها، وهي بانتقالها من الكتب الى الخطاب تشنّج الكلام عينه [10]. اذا المرء أضحى كل شيء يقوله كما لو كان يكتبه، لم يغد الا قارئا يتكلّم .

الفصل السادس

هل من المحتمل انّ هوميروس
قد كان يعرف الكتابة .

ومهما قيل لنا عن اختراع الأبجديّة اليونانيّة ، فانّي لاظنها أحدث بكثير ممّا يظنّون . وأقيم هذا الرّأي أساسا على طبيعة اللّغة . فكثيرا ما خطر ببالي أن لا أشكّ فحسب في أنّ هوميروس قد كان يعرف الكتابة ، بل وحتّى في ان الكتابة قد كانت معروفة في زمانه . ولشدّ ما يؤسفني ما تقطع به حكاية بلّيروفون ضمن الالياذة من تكذيب لهذا الشكّ. ولمّا كان من سوء حظّي ان أكون مثل الأب هاردوين عنيدا بعض الشيء بمفارقاتي، فاني لو كنت أقل جهلا لوددت مدّ شكوكي الى هذه الحكاية نفسها ، واتهامها بأنها قد انتحلت من دون كبير فحص من قبل مصنّفي هوميروس . فلا يكفي أنّ المرء لا يكاد يرى في باقي الالياذة آثارا لهذه الصناعة بل انّي لأجرؤ على القول بأنّ الأوديسة بأكملها ليست الا نسيجا من الحماقات والعبارات التي قد كان يكفيها حرف أو حرفان لتكون هباء منثورا ، وذلك بعكس ما يقدّم لنا هذا النشيد كنشيد معقول بل وربما كنشيد حاذق النظم، بفرض أن أبطاله قد كانوا جاهلين الكتابة .

فلو أنّ الالياذة قد كانت كتبت، لقلّ الترنّم بها ولقلّ البحث عن الربّاسلة ، ولقلّ تكاثر هؤلاء . فليس ثمّة من بين الشّعراء من ترنّم بشعره مثلما ترنّم بشعر هوميروس .اللهم الا «تاس» بالبندقية. وحتى هو فلم يتغن بشعره الا العنادلة، وليسوا بقراء كبار. ثم ان اختلاف اللهجات التي يستخدمها هوميروس يمثل أيضا قرينة متينة جدا؛ فان اللهجات تتمايز ضمن الكلام ، وتتقارب بل تندغم ضمن الكتابة ، بحيث يرجع كل شيء من حيث لا ندري إلى نموذج مشترك . فان الامة بقدر ما تقرأ وتتعلم تذوب لهجاتها ، فلا تبقى في الأخير الا في شكل رطانة لدى الجمهور الذي يقرأ قليلا ولا يكتب أصلا .

ولكن لمّا كان هذان النّشيدان متأخّرين عن حصار طروادة، فانّه لا يجوز البتّة أنّ الذين قاموا بهذا الحصار من اليونانيّين قد عرفوا الكتابة وأنّ الشّاعر الذي تغنّى به لم يعرفها . لقد ظلّ هذان النّشيدان طويلا مكتوبين في ذاكرة النّاس فقط . ثمّ تمّ تدوينهما مؤخّرا وبمشقّة كبرى . فعندما بدأت بلاد اليونان ، تعجّ بالكتب والشّعر المكتوب ، اذ ذاك شعر النّاس بروعة شعر هوميروس بالمقارنة مع كلّ ذلك . لقد كان غيره من الشعراء يكتبون أمّا هو ميروس فهو وحده قد تغنّى ولم تزل أناشيده الاهيّة ملذوذة السماع حتّى امتلأت أوروبا بالهمج الذين أقبلوا يحكمون على ما لم يكن بوسعهم تذوّقه .

الفصل السابع

في العروض الحديث

ليس لنا من تصوّر عن لغة زنّانة متناغمة تتكلّم أنغاما كما تتكلّم أصواتا . ولعمري فانّ المرء ليظنّ خطأ أنّ النّبرات تقوم مقام النّغم . فانّا لا نخترع النّبرات الّا وقد ضاع منّا النّغم وانتهى [11] وأبعد من ذلك في الوهم ما نعتقده من أنّ لنا في لغتنا نبرات في حين لا نملك منها شيئا . فليست نبراتنا المزعومة الّا مصوّتات أو علامات كميّة ، ولا تشكّل أي نوع من النّغم . ويدلّ على ذلك ما يمكن من ادائها كلّها امّا بأزمنة متفاوتة أو بتغايرات في قرع الشّفاه واللّسان أو الحنك ، وعن كلّ هذه يكون تمايز الأصوات فليس ثمّة نبرة واحدة يتمّ أداؤها بواسطة تغايرات الحنجرة التي عنها يكون تمايز الأنغام . وهكذا فان لم تكن نبرة المدّ عندنا مجرّد صوت فهي مصوّت طويل أو هي لا شيء . ولننظر الآن في الكيفيّة التي كانت عليها نبرة المدّ لدى اليونانيّين :

يقول دونيس الهليكرنابسّي انّ رفع الصّوت عند النّبرة الحادّة وخفضه عند النّبرة الغليظة قد كانا فاصلة خماسيّة . وهكذا فانّ النّبرة العروضيّة وخاصّة نبرة المدّ ، قد كانت أيضا نبرة موسيقيّة يرتفع فيها الصّوت بفاصلة خماسيّة ، ثمّ ينخفض

فاصلة أخرى وذلك في نفس المقطع [12] . فنحن نرى بما يكفي ، في هذا النّص وفيما يتّصل به، أنّ السّيد دوكلو ينكر وجود نبرة موسيقيّة في لغتنا ، فلا يعترف الّا بالنبرة العروضيّة ونبرة المصوّت . وتضاف الى ذلك نبرة الرّسم التي لا تغيّر من الصّوت شيئا ولا من النّغم ولا من الكميّة ، ولكنّها تارة تشير الى حرف مضمر كما هو الحال في نبرة المدّ وطورا تضبط ما يلتبس من معنى كلمات آحاديّة المقطع كما هو الحال في النّبرة الغليظة التي تميّز « où » ظرف المكان عن « OU » أداة الفصل ، أو تميّز « à » كأداة عن « a » كفعل . انّ هذه النّبرة لا تميّز بين هذه الكلمات الأحاديّة المقطع الّا بالعين ، وليس ثمّة ما يميّز بينها في النّطق . وهكذا فانّ ما يعتمده الفرنسيّون غالبا من تعريف للنّبرة لا يطابق أيّة نبرة في لغتهم .

وإني لأتصور أن الكثير من النحويين الذين تعلّموا أن النبرات إنما هي علامات ارتفاع في الصّوت أو انخفاض فيه ، سيضجّون هنا أيضا ، تنديدا بالمفارقة . وهم لفرط ما لا ينتبهون الى التّجربة ، سيظنّون أنفسهم قادرين على أن يؤدّوا بتغايرات في الحنجرة عين تلك النّبرات التي لا يؤدّونها الّا بتغاير انفتاحات الفم وأوضاع اللّسان [13] ولكن هاكم ما سأقوله لهم معاينة للتّجربة وجعلا لحجّتي مفحمة :

فلتناغموا بين صوتكم وتصادي بعض الآلات الموسيقيّة، ولتنطقوا على ذلك التّصادي كلّ ما يمكنكم تجميعه من الكلمات الفرنسية المتتالية مهما اختلفت نبراتها . ولمّا كان الأمر غير متعلّق هنا بالنّبرة الخطابيّة ولكن بالنّبرة النّحوية ، فليس حتّى من الضّروري ان تكون هذه الكلمات المختلفة متتابعة المعنى . ولتنظروا فيما أنتم تتكلّمون هكذا ان لم تكونوا تؤدّون على نفس ذلك الصّوت كلّ النّبرات ، وذلك بنفس القدر من الوضوح والجلاء الذي قد كان يكون لكم لو أنّكم كنتم تنطقون بدون قيد وأنّكم كنتم تغايرون طبقتكم الصّوتية . فانّي أقول ، اذا سلّمنا بهذا الأمر وهو أمر لا يقبل النّقاش لمّا كانت كلّ النّبرات تؤدّى على نفس الطّبقة ، فانّها لا تشكّل أصواتا مختلفة . ولا أتصوّر ما يمكن الرّد به على هذا القول .

ان كلّ لغة يمكن لنا فيها أن نخلع عدّة ألحان موسيقيّة على نفس الكلمات ، فليس لها أيّة نبرة موسيقيّة محدّدة اذ لو كانت النّبرة محدّدة لكان اللّحن كذلك .فما ان يصبح الغناء تحكّميا حتّى تصير النّبرة زائدة لا طائل من ورائها .

انّ كلّ اللّغات الاوروبية الحديثة هي في نفس الحالة تقريبا وحتّى الايطالية ، فانّي لا أستثنيها من بينها . فانّ اللّغة الايطاليّة ، كاللّغة الفرنسيّة ، ليست موسيقيّة في حدّ ذاتها أصلا. ولا يرجع الفرق بينهما الا الى كون احداهما قابلة للموسيقى وأنّ الاخرى غير قابلة لها .

ويؤدّي كلّ ما تقدّم الى اثبات هذا المبدأ : أنّ كلّ اللّغات الأدبيّة لابدّ لها بموجب تقدّم طبيعيّ أن تغيّر من طبعها ، فتتضاءل قوّتها ليتزايد وضوحها وأنّنا بقدر ما تتعلّق همّتنا بتحسين النّحو والمنطق ، نزيد من سرعة هذا التقدّم ، وأنّه لا يلزمنا لكي نسرع في جعل لغة ما لغة باردة ورتيبة الّا اقامة أكاديمية لدى الشّعب الذي يتكلّمها .

تعرف اللّغات المشتقّة بما فيها من الفرق بين الرّسم والنطق . فبقدر ما تكون اللّغات قديمة وأصيلة بقدر ما يقلّ التحكّم عن أسلوب نطقها ، فيقلّ بالتّالي تعقيد الحروف المحدّدة لهذا النّطق ويقول السّيد دوكلو « انّ كلّ ما كان لدى القدماء من العلامات العروضيّة حتّى اذا ما افترضنا أنّه قد وقع ضبط مواطن استخدامها لم تكن تضاهي الاستعمال » . أمّا أنا ، فسأقول أكثر من ذلك : لقد عوّضت تلك العلامات الاستعمال . فلم يكن للعبرانيين نقط أو نبرات ، ولم يكن لهم حتّى مصوّتات . وعندما أرادت الأمم الاخرى أن تشتغل بتعلّم العبريّة ، وعندما تكلّم اليهود لغات أخرى ، فقدت لغتهم رنّتها . فكان لابدّ لضبطها من النّقط والعلامات . ولكن ذلك أثبت معاني الكلمات من جديد أكثر ممّا أثبت نطق اللّغة . فلو تكلّم يهود اليوم بالعبريّة لما فهمهم أجدادهم .

وتقتضي معرفة اللّغة الانقليزية أن نتعلّمها مرّتين : احداهما قراءة والاخرى نطقا . هب انّ انقليزيّا كان يقرأ ما كان شخص آخر غريب عنه يتابع (ما كان

يقرأ) في الكتاب . فانّ هذا الاخير لن يجد أيّة علاقة بين ما يراه وما يسمعه . لم ذلك ؟ لأنّه لمّا كانت انقلترا قد تعاقبت على احتلالها شعوب مختلفة ، فقد ظلّت الكلمات تكتب بنفس الرّسم في حين تغيّر أسلوب نطقها كثيرا . فثمّة فرق حقيقيّ بين العلامات التي تحدّد معنى الكتابة والعلامات التي تضبط النطق . وقد يكون من اليسير جدّا أن نضع بالصّوامت وحدها لغة جدّ واضحة في الكتابة ولكنّه لا يكون بوسعنا التكلّم بها . ولعلّ في الجبر بعضا من هذه اللّغة . فعندما تكون لغة ما أوضح برسمها ممّا هي بنطقها ، فتلك شهادة على أنّها مكتوبة أكثر ممّا هي منطوقة . ولعلّ لغة العلماء المصريين قد كانت على هذه الحالة . كذلك اللّغات الميتة بالنّسبة لنا . أمّا اللّغات التي تشحن بما لا يلزم من الصّوامت، فربما بدت الكتابة سابقة فيها على الكلام. ومن لا يظن اللغة البولونية في هذا الوضع؟ واذا صح ذلك، فلا بد ان تكون البولونية ساعتها أبرد اللغات كلها .

الفصل الثامن

اختلاف أصل اللّغات عموما ومحلّيا .

انّ كلّ ما قلته الى هذا الحدّ ينطبق على اللّغات البدائية عامّة وعلى ما يحصل في خلال مدّتها من تقدّم . ولكنّه لا يفسّر أصلها ولا اختلافاتها . فانّ السبب الرّئيسي الذي يميّز بينها محلّي . فهو آتٍ من المناخات التي تتولّد فيها ومن الاساليب التي تتكوّن بها . فإلى هذا السّبب يجب الرّجوع إذا رمنا تصوّر ما نلاحظه بين لغات الجنوب ولغات الشّمال من اختلاف عامّ وخصوصيّ . انّ عيب الأوروبيين الكبير هو أنّهم يتفلسفون دائما في أصول الأشياء بحسب ما يحدث حولهم . فلا يقعدون أبدا عن أن يقدّموا لنا مشهد النّاس الأوّلين اذ يسكنون أرضا قاسية قاحلة ويموتون بردا وجوعا ، ويتعجّلون في أن يصنعوا لأنفسهم غطاء ولباسا. وانهم لا يرون ــ أينما رفعوا أبصارهم ــ إلا جليد أوروبا وثلوجها ، فلا يخطر ببالهم أنّ النّوع البشري ككلّ الأنواع الاخرى انّما تولّد في البلاد السّاخنة وأنّ ثلثي الكرة الأرضية لا يكادان يعرفان الشّتاء . لا بدّ من أن ننظر حولنا عندما نريد أن ندرس النّاس . ولكنّنا عندما نريد أن ندرس الانسان

مطلقا ، لابدّ أن نشيّع بصرنا الى بعيد . لا بدّ من أن نلاحظ الفروق أولا حتّى نكتشف الخصائص .

انّ الجنس البشري الذي تولّد في البلاد السّاخنة ، يمتدّ من بعد ذلك الى البلاد الباردة . فهناك يتكاثر ثمّ ينسحب الى البلاد السّاخنة . وعن هذا الوضع من الامتداد والانسحاب ، تكون انقلابات الارض ويكون اضطراب سكّانها المتواصل . فلنعمل على أن نساير في بحوثنا نظام الطّبيعة ذاته . وانّي لمقدم هنا على استطراد طويل في موضوع قد أكل عليه الدّهر وشرب حتّى صار مبتذلا . ومع ذلك فلا بدّ من الرّجوع اليه دائما حتّى نقف على أصل المؤسسات الانسانيّة .

الفصل التاسع

تكوّن اللّغات الجنوبيّة

لم يكن للبشر المشتّتين على وجه الأرض في الأزمنة الأولى [14]من مجتمع الّا مجتمع الأسرة ، ولم تكن لهم من القوانين الّا قوانين الطّبيعة ومن اللّغة الّا لغة الايماء، وبضعة أصوات غير متمفصلة [15] لم تكن تربط بينهم أيّة فكرة للأخوّة المتبادلة . ولما لم يكن لهم في ما عدا القوّة من حكم فقد كانوا يظنّون بعضهم أعداء للبعض . فضعفهم وجهلهم هما اللّذان كانا يعطيانهم هذه الفكرة . ولمّا كانوا لا يعرفون شيئا ، فقد كانوا يخافون كلّ الأشياء . لقد كانوا يهاجمون غيرهم للدّفاع عن أنفسهم . انّ الانسان الذي ندعه وحده على وجه الأرض تحت رحمة الجنس البشري لا بدّ أنّه قد كان حيوانا شرسا . لقد كان مستعدّا لأن يلحق بالاخرين كلّ الشرّ الذي كان يخشاه منهم. فانّ الخوف والضعف هما أصل القساوة .

لا تنمو الأهواء الاجتماعيّة فينا الّا بقدر استنارتنا . فلولا الخيال الذي يحرّكها لظلّت الشفقة على كونها طبيعيّة في قلب الانسان جامدة الى الأبد . كيف يبلغ

بنا التأثّر الى حدّ الشفقة ؟ انّ ذلك يكون بانتقالنا خارج أنفسنا وتماهينا مع الكائن الذي يتألّم.فانّنا لا نتألّم الا بمقدار ما نعتبر أنّه يتألّم . وما في أنفسنا نحسّ بالألم بل في نفسه هو نحسّ به . فليتأمّل المرء فيما يتطلّبه هذا الانتقال من المعارف المكتسبة : كيف يمكنني أن أتخيّل آلاما ليس لي أيّ تصوّر عنها ؟ كيف أتألّم لرؤية غيري يتألّم ان لم أكن أعرف على الأقلّ أنّه يتألّم ، وكيف ان كنت جاهلا بما هو مشترك بينه وبيني ؟ فمن لم يفكّر أبدا لم يمكنه أن يكون رحيما ولا عادلا ولا عطوفا ، بل لم يمكنه حتّى أن يكون قاسيا وحقودا . من لا يتخيّل شيئا لا يحسّ بغير نفسه ، وهو وحيد وسط الجنس البشري .

يتولّد التّفكير عن الأفكار اذ نقارن بينها ، وكثرة الأفكار هي التي تحملنا على ذلك . فليس بوسع من لا يرى غير شيء واحد أن يقارن . والذي لا يرى الّا عددا يسيرا منها ، لم يزل هو هو منذ صباه ، فانّه لا يقارن بينها أيضا ، لأنّ تعوّده رؤيتها يجرّده ممّا يلزمه من الانتباه لتفحّصها . ولكنّنا على قدر ما يسترعي انتباهنا شيء جديد ، نروم معرفته ، ونروم أن نقف له على علاقات بما نعرفه من الأشياء . فانّنا هكذا نتعلّم اعتبار ما هو واقع تحت أنظارنا ، وهكذا أيضا تحملنا رؤية ما هو غريب عنّا على أن نتلفّت الى فحص ماهو قريب منّا .

فلتطبّقوا هذه الأفكار على النّاس الأولين، سترون اذ ذاك علّة همجيتهم . فلأنّهم لم يروا أبدا غير ما كان محيطا بهم ، فقد جهلوا حتّى إيّاه ، بل لم يعرفوا بعضهم بعضا . لقد كان في أذهانهم صورة عن الأب أو عن الابن أو عن الأخ ، أما عن الانسان فلا . وكانت أكواخهم تؤوى كلّ نظرائهم . وفي حسابهم أنّ الغريب والدّابة والغول هي كلّها سواء ، وما كان الكون بأسره عندهم شيئا غير ما كانوا وما كانت عائلاتهم .

من هنا يأتي ما نراه من التّناقضات الواضحة بين أولياء الأمم : كلّ تلك الفطرة مع كلّ تلك الوحشيّة ، كلّ تلك الشّراسة في العادات مع كلّ تلك الرّقة في القلوب ، كل ذلك الحبّ لعائلاتهم مع كل ذلك البغض لنوعهم . لقد ازدادت مشاعرهم قوّة باستقرارها في أقربائهم : اذ كان كلّ ما يعرفونه عزيزا

عليهم . ولمّا كانوا أعداء لبقيّة العالم الذي لم يكونوا يرونه ، والذي كانوا يجهلونه ، فانّهم لم يكونوا يكرهون الّا ما لم يكن بوسعهم معرفته .

لقد كانت أزمنة الهمجيّة هذه هي القرن الذّهبي لا لأنّ النّاس كانوا متّحدين ولكن لأنّهمْ كانوا متفرّقين . لقد كان كلّ واحد منهم ، على ما يقولون ، يعُدّ نفسه سيّد كلّ شيء . ربّما ! ولكن لم يكن منهم من كان يعرف أو يشتهي غير ما كان في حوزته. فلقد كانت حاجاته تبعده عن نظرائه عوضا عن أن تقربه منهم . وان شئتم ، فانّ النّاس كانوا يهاجم بعضهم بعضا عند اللّقاء ولكنّهم نادرا ما كانوا يلتقون ، لقد كانت حالة الحرب تسود كلّ مكان ومع ذلك فقد كانت كلّ الأرض في سلام .

لم يكن الأوّلون حرّاثين ، بل كانوا صيّادين ورعاة ، ولم تكن الثّروات الأولى حقولا بل كانت قطعانا . وقبل أن يتمّ تقسيم ملكيّة الأرض لم يكن يدور بخلد امرىء أن يفلحها . فالفلاحة صناعة تتطلّب أدوات . والزّرع القاصد الى الحصاد مسعى يحتاج الى بصيرة . انّ الانسان في المجتمع يسعى الى التّوسّع ، أمّا الانسان المنعزل فينطوي على نفسه ، فلا يكاد يتجاوز المدى الذي يمكن لعينه أن تبصر فيه ، ويمكن ليده أن تبلغه حتّى ينقطع حقّه وتنقطع ملكيّته . فانّ العملاق لا يدحرج الصّخرة الى ولجة كهفه حتّى يبيت آمنا هو وقطعانه . ولكن من ذا الذي سيرعى حصائد من لا تسهر عليه القوانين .

لسوف يعترض عليّ بأنّ قايين قد كان حرّاثا وأنّ نوحا قد تعاطى غرس الكروم . وما العجب في ذلك ؟ لقد كان كلاهما وحيدا . فما الذي كانا يخشيان ؟ ومن جهة أخرى ، فانّ هذا الاعتراض لا يزعزعني أصلا . فلقد بيّنت فيما تقدّم ما أعنيه بالأزمنة الأولى . وعندما أصبح قايين هاربا فلقد اضطرّ فعلا الى ترك الفلاحة . كذلك فلا بدّ أن حياة التّيه التي عاشها أبناء نوح قد أنستهم الفلاحة . لقد كان ضروريّا أن تعمّر الأرض قبل أن تفلح . فهذان أمران لا ينقضيان معا . لقد انقطعت الفلاحة خلال التشتّت الأوّل للجنس البشري . وظلّت كذلك الى أن ظهرت الأسرة وتمّ للانسان أن يأوي الى مسكن قارّ . انّ

الشعوب التي لا تستقرّ أبدا لا يمكنها أن تفلح الأرض . ذلك هو ما كان من أمر الرّحل والعرب إذ يعيشون تحت الخيام ، وذلك ما كان من أمر السّيث على عرباتهم . وكذلك ما يزال اليوم يعيش التّتر التّائهون ، ومتوحّشو أمريكا .

وبصفة عامّة ، فانّنا نجد لدى كلّ الشعوب التي نعرف أصلها أنّ أوّل الهمج قد كانوا شرهين ولا حمين أكثر ممّا كانوا فلّاحين وأكلة حبوب ويذكر لنا اليونانيون اسم أوّل من علّمهم حراثة الأرض ، ويبدو أنّهم لم يعرفوا هذه الصّناعة الّا مؤخّرا جدّا . ولكنّهم عندما يضيفون أنّهم لم يكونوا يقتاتون قبل تريفتو ليموس الّا من البلوط ، فانّهم يقولون أمرا عديم الاحتمال ويكذّبه تاريخهم بالذّات . ذلك أنّهم انّما كانوا يقتاتون من اللّحم قبل تريفتو ليموس ، اذ هو منعهم من أكله . ولكنّنا لا نرى مع ذلك أنّهم قد حسبوا لهذا التحّريم كبير حساب .

فلقد كانوا فيما يصفه هوميروس من ولائمهم ، يصرعون لاطعام ضيوفهم ثورا كما نصرع اليوم خنّوصا ، وانّه ليمكننا أن ندرك مدى ما كان أهل تلك الأزمنة مفترسي لحوم عندما نقرأ أنّ ابراهيم قد قدّم عجلا لثلاثة أشخاص وأنّ أومي قد أمر بطبخ جديين لعشاء أوليس ، وأنّ ريبيكا قد أمرت بمثل ذلك لعشاء زوجها . فان نحن رمنا أن نتصوّر أكلات القدامى لم يكلّفنا ذلك أكثر من أن ننظر الى ما يأكله المتوحّشون : وقد كدت أقول ما يأكله اليوم الانقليز .

انّ أوّل ما أكل من الحلوى قد كان أوّل اندماج للجنس البشري . فعندما بدأ النّاس يستقرّون ، كانوا يستصلحون شيئا من الأرض حول أكواخهم . لقد كان ذلك بستانا أكثر ممّا كان حقلا . فكانت الحبوب القليلة التي يصيبونها تطحن بين حجرين ثمّ يصنعون منها بعض الحلويات يطبخونها تحت الرّماد أو الجمر أو فوق حجر حام ولا يأكلون منها الّا في الولائم . انّ هذه العادة القديمة التي احتفظ بها لدى اليهود من خلال عيد الفصح مازال يحتفظ بها اليوم في بلاد فارس وجزر الهند. فلا يأكل المرء فيها الا خبزا بدون خمير وهذه الرقاقات من الخبز تطهى وتستهلك عند كل وجبة. فلم يخطر ببال الناس أن يخمروا الخبز الا عندما احتاجوا الى المزيد منه: ذلك ان التخمير لا يكون جيّدا عندما تكون كميّة الخبز صغيرة .

وانّي أعلم أنّنا نجد أنّ الفلاحة قد انتشرت بعد منذ زمن البطاركة . ولا بدّ أنّ جوار مصر قد حمل الفلاحة الى فلسطين منذ زمن مبكّر . فانّ كتاب أيّوب ولعلّه أقدم ما يوجد من الكتب يتحدّث عن فلاحة الحقول ، ويقدّر خمسمائة زوج من الثيران ضمن ثروات أيوب . فكلمة الزّوج هذه توحي بمشهد الثّيران مقرونة أزواجا في العمل ، بل ويثبت الكتاب أنّ هذه الثّيران قد كانت تحرث ساعة اختطفها السبئيون. ومن الميسور أن يقدّر المرء مدى اتّساع الرّقعة التي كان يحرثها خمسمائة زوج من الثّيران .

كلّ هذا صحيح . ولكن لا يجب أن نخلط بين الأزمان . فانّ زمن البطاركة الذي نعرفه ، بعيد جدّا عن الزمن الأوّل . فالكتاب المقدّس يحتسب عشرة أجيال بين هذين الزّمنين ، في تلكم القرون التي كانِ النّاس يعمّرون فيها طويلاِ . فما الذي تراهم فعلوه خلال هذه الأجيال العشرة ؟ انّنا لا نعرف عن ذلك شيئا . فانّ ما كانوا يعيشون فيه من التّشتّت ومن انعدام المجتمع قد جعلهم لا يكادون يتكلّمون . فأنّى لهم أن يكتبوا ؟ ومن لهم — مع رتابة حياتهم المنعزلة — بأحداث يدوّنونها لنا ؟

لقد كان آدم يتكلّم ، وكان نوح يتكلّم . فليكن ! أمّا آدم فقد علّمه اللّه ذاته . وأمّا أبناء نوح ، فقد تركوا الفلاحة عندما تفرّقوا ، فاندثرت اللّغة المشتركة باندثار المجتمع الأول . ولقد كان ذلك حادثا حتّى ولو لم يوجد برج بابل أبدا . فانّا قد رأينا الأفراد المتوحّشين في الجزر الخاليات ينسون عين لغتهم . وقلّما احتفظ أناس أقاموا بغير أرضهم بلغتهم الأولى وقد مضت عليهم أجيال عديدة ، وان كانت لهم أعمال مشتركة وحياة اجتماعيّة .

ولمّا تشتّت النّاس في هذه الصّحراء الشّاسعة من العالم ، سقطوا من جديد في الهمجيّة الحمقاء التي لو أنّهم ولدوا من التّراب لوجدوا أنفسهم فيها . فاذا ما تتبّعنا هذه الأفكار الشّديدة التّساوق ، تيسّر لنا أن نوفّق بين سلطة الكتاب المقدّس والصّور القديمة ، ولم نضطرّ الى أن نعتبر أن تقاليد لها من القدم ما للشعوب التي خلّفتها لنا هي خرافات .

لم يكن للنّاس بدّ من أن يعيشوا في تلك الحالة من التّوحش . فأمّا أنشطهم وأمتنهم عضلات ، أولئك الذين اعتادوا أن يتقدّموا غيرهم دوما ، فما كان بوسعهم الّا أن يقتاتوا من الثّمار ومن الصّيد . فأصبحوا بذلك صيّادين غلاظا وسفاكي دماء ، ثمّ تحوّلوا بمرور الزّمن الى محاربين وغزاة ونهبة . لقد دنّس التاريخ صروحه بجرائم هؤلاء الملوك الأول . فليست الحرب والغزوات الّا تصيّدا للناس يغزونهم ثمّ لا يبقى لهم من بعد ذلك الّا افتراسهم : ذلك هو ما تعلّمه خلفاؤهم .

وأمّا السّواد الأكبر من النّاس ، فقد كانوا أقلّ نشاطا وأكثر وداعة، فتوقفوا بأسرع ما أمكنهم وجمعوا بعض الماشية فروّضوها وآلفوها صوت الانسان ليتغذّوا بها . كما تعلموا أن يرعوها وأن يجعلوها تتكاثر : وهكذا بدأت الحياة الرّعويّة .

انّ صناعة الانسان تمتدّ بامتداد الحاجات التي تولّدها . ومن بين الأساليب الثّلاثة التي يمكن للانسان أن يعيش بها ، وأعني الصّيد ورعاية قطعان الماشية والفلاحة فانّ الأوّل يعوّد البدن على القوة والمهارة والعدو كما يعوّد النّفس على الشّجاعة والحيلة . فهو يجعل الانسان صلبا شرسا . انّ بلاد الصّيادين لا تظلّ طويلا بلاد الصّيد [16] . لا بدّ من مطاردة الفريسة بعيدا . لا بدّ اذن من استخدام الأسلحة الخفيفة كالمقلاع والسّهم والرّمح . أمّا الفنّ الرعوي ، وهو أبو الرّاحة وأبو العواطف المتبلّدة ، فهو أشدّ الصّناعات اكتفاء بنفسه، اذ يوفّر للانسان من غير مشقّة تقريبا ، عيشه ولباسه ، بل يوفّر له ، حتّى مأواه : فلقد قدّت خيام أوّل الرّعاة من جلود الماشية . وما كان سقف عرش موسى وتابوته من غير هذا الجلد . أما الفلاحة ، وهي أبطأ في الولادة، فتتصل بكل الفنون : فهي تجلب الملكيّة والحكم والقوانين ، كما تجلب بالتدريج الشّقاء والجرائم التي لا يمكن عندنا فصلها عن علم الخير والشرّ . لذلك لا يعتبر اليونانيون أن تريفتوليموس قد كان فقط مخترعا لفنّ نافع ، بل يعتبرون أيضا أنّه قد كان معلّما وحكيما أخذوا عنه أوّل ما كان لهم من النّظام والقوانين وعلى العكس من ذلك يبدو أنّ موسى لا يبارك الفلاحة وذلك لأنه يجعل مخترعها ضالّا ويجعل قرابينها غير مقبولة عند الله

فكأنّ أوّل الحرّاثين قد أعلن في طباعه عن النّتائج السيّئة لصناعته . لقد كان نظر مؤلّف سفر التّكوين أبعد من نظر هيرودوتس .

وتتّصل بالتّقسيم السّابق الحالات الثّلاث للانسان من حيث علاقته بالمجتمع . فالمتوحّش صياد والهمجيّ راع والانسان المدني حرّاث .

وسواء أسعينا الى الكشف عن أصول الفنون أو عمدنا الى ملاحظة أولى العادات ، فانّنا نرى أنّ كلّ ذلك راجع في مبدئه الى وسائل تحقيق العيش . فما كان من بين هذه الوسائل جامعا للنّاس ، فهو محدّد بالمناخ وبطبيعة الأرض . فبهذه الأسباب أيضا يتعيّن تفسير اختلاف اللّغات وتعارض خصائصها .

لقد كانت البلاد ذات المناخات المعتدلة والاراضي الدّسمة والخصبة هي الأولى من حيث عمرانها والأخيرة من حيث تكوّن الأمم بها ، وذلك لأنّه قد كان أيسر على النّاس في هذه الأماكن أن يستغنى بعضهم عن البعض ، ولأن الاحساس بالحاجات التي يتولّد عنها المجتمع لا يظهر فيها الا بعد ذلك .

فلتفترضوا أنّ الأرض قد خيّم عليها فصل ربيع دائم : ولتفترضوا في كلّ مكان ماء وماشية ومراعي : ولتتخيّلوا حالة النّاس اذ سوّتهم يد الطّبيعة ، وقد انتشروا في كلّ ذلك . لا أتصوّر كيف يمكنهم أبدا أن يتنازلوا عن حرّيتهم الأوّلية ، وأن يغادروا الحياة المنعزلة والرّعوية ، وهي على مثل هذا القدر من التّلاؤم مع لا مبالاتهم الطّبيعيّة (17) ، لكي يلزموا أنفسهم بما لا يلزم من العبوديّة والأشغال والشقاوات التي لا تنفكّ عن الحالة الاجتماعيّة .

ما كان على الذي اراد للانسان أن يكون اجتماعيا الّا أن يجعل اصبعه على محور الكرة الأرضيّة ، ثمّ أن يميله على هذا الكون . ها انّي أرى الأرض قد تغيّر وجهها بفعل هذه الحركة الخفيفة : وها أنّي أرى الجنس البشري قد تقرّر قدره وانّي لسامع صيحات الفرحة يرسلها جمع ممّن لا رشد لهم . وها أنا أرى النّاس يقيمون القصور والمدن . وهاهي الفنون تولد والقوانين والتّجارة . وهاهي الشّعوب تتكوّن فتمتدّ وتنحلّ وتتوالى كما تتوالى سيول البحر . وانّي لأرى النّاس وقد احتموا

في بعض النّقاط من منازلهم ، يتآكلون ، ويحوّلون ما بقي من العالم الى صحراء موحشة ، صرحا يشهد على وحدة المجتمع وعلى منفعة الفنون .

فاذا ما سعيتم الى تحديد الأماكن التي ولد فيها آباء الجنس البشري والتي نشأت منها الشّعوب الأولى وجاءت منها الهجرات الأولى ، فانّكم لن تنطقوا بأسماء المناخات المعتدلة لآسيا الصّغرى أو صقليّة أو افريقيا أو حتّى مصر ، بل ستذكرون رمال كلدان وصخور فينيقيا . وستجدون الأمر نفسه في كلّ الازمان. فانّ الصّين مهما عمرها الصينيّون ، فان التّتر يعمرونها أيضا . وقد غمر السيث أوروبا وآسيا ، وتصبّ الآن جبال سويسرا في مناطقنا الخصبة سيلا غير منقطع من المعمّرين يظهر أنّه لن ينصب أبدا .

طبيعيّ ، على ما يقولون ، أن يغادر سكّان أرض قاحلة تلك الأرض ليستقرّوا بأحسن منها . هذا حسن جدّا . ولكن ، لم كانت هذه الأرض الأحسن ، عوضا عن أن تعجّ بأهلها هي ، تتّسع لغيرهم ؟ انّ الخروج من أرض قاحلة يقتضي أنّنا نكون فيها . لم يفضّل كلّ هؤلاء النّاس اذن أن يُولدوا فيها ؟ يكاد المرء يظنّ أنّ الاراضي القاحلة لا يجب أن تعمر الّا بما يزيد عن طاقة الأراضي الخصبة . ولكنّنا نرى أنّ الأمر هو عكس ذلك . انّ أغلب الشعوب اللّاتينيّة كانت* تعتبر نفسها شعوبا أصلية [18] ، في حين أن بلاد اليونان الكبرى وهي أخصب بكثير ، لم يكن يقطنها الّا الغرباء عنها . لقد كانت كلّ الشّعوب اليونانيّة تعترف أنّها ترجع في أصلها الى قرى مختلفة ، باستثناء الشّعب الذي كانت أرضه أسوأ الاراضي ، ألا وهو الشعب الأتيكي . فقد كان يقول عن نفسه انّه شعب أصيل أو ابن نفسه . وأخيرا ، فمن دون أن ننفذ الى غابر الأزمان ، تمكّننا القرون الحديثة من ملاحظة حاسمة : فأيّ مناخ في العالم أشدّ بؤسا من ذلك المناخ الذي أطلقوا عليه اسم مصنع الجنس البشري ؟

انّ التجمعات البشريّة هي في الغالب من عمل الطّوارىء الطّبيعيّة كالطّوفان المحلّي أو كاندفاق سيول البحر وانفجارات البراكين وهزّات الأرض الكبرى والحرائق التي تضرمها الصّواعق والتي كانت تهلك الغابات ، انّ كلّ ما كان

أخاف السّكان المتوحّشين لأرض ما وشتّتهم ، قد جمعهم من بعد ذلك لكي يتّحدوا في جبر ما اشتركوا فيه من الخسائر . فأخبار مصائب الأرض التي كانت رائجة جدّا في الأزمان السّابقة ، تبيّن لنا ماهي الأدوات التي استخدمتها العناية الالهية لحمل البشر على التقارب. ولقد انقطعت هذه الحوادث الكبرى وقلت منذ أن أقيمت الاجتمعات. ولعل هذا الوضع ما يزال قائما، فعين المصائب التي كانت جمعت الناس المشتتين، قد تشتت اليوم أولئك الذين هم مجتمعون .

انّ تداول الفصول سبب آخر أعمّ وأدوم، لا بدّ أنه قد كان له نفس المفعول في البلاد ذات المناخات المعرّضة لهذا الاختلاف . فهاهم السّكان وقد اضطرّوا الى التزوّد بالمؤونة ، تحسّبا للشتاء ، يلجؤون الى التّعاون والى اقامة ضرب من الاتّفاق فيما بينهم ، فعندما يتعذّر عليهم التّجوال ، وتوقفهم عنه صرامة البرد ، اذ ذاك يجمعهم القلق بقدر ما تجمعهم الحاجة . فقد كان اللّابونيون المندفنون في ثلوجهم ، والاسكيمو وهم أشدّ الشّعوب توحّشا ، يجتمعون في كهوفهم شتاء ثمّ ينقطع تعارفهم صيفا . فلتزيدوهم في تقدّمهم درجة وفي استنارتهم درجة ، اذن لسوف ترونهم يجتمعون الى الأبد !

ليست معدة الانسان ولا أمعاؤه معدّة لهضم اللّحم النّيء . فانّ ذوق الانسان لا يتحمله عموما . وفي ما عدا الاسكيمو وحدهم تقريبا ، وقد كنت أتحدّث عنهم ، فانّ المتوحّشين أنفسهم يشوون لحومهم ، فينضاف الى استعمال النّار الضّروريّة لطبخها ، اللّذة التي تعطيها النّار للبصر والحرارة التي يلتذّ بها الجسم . انّ مشهد النّار ، الذي ينفّر الحيوانات ، يجلب الانسان [19] ، فيجتمع النّاس حول موقف مشترك ، ويقيمون الولائم ويرقصون : هناك تقرّب روابط العادة العذبة الانسان من نظرائه من دون أن يشعر ، وعلى ذلك الموقد الغابي تشتعل النّار المقدّسة التي تحمل أول مشاعر الانسانيّة الى أعماق القلوب .

انّ العيون والأنهار التي يتفاوت انتشارها في البلاد السّاخنة هي نقاط أخرى للاجتماع ، زاد في ضرورتها كون النّاس أعجز عن الاستغناء عن الماء ممّا هم عن النّار . والهمج خاصة ، وهم أولئك الذين يعيشون من قطعانهم ، يحتاجون الى

موارد مائيّة مشتركة ، ويخبرنا تاريخ أقدم الأزمنة بأنّ معاهداتهم وخصوماتهم قد بدأت هناك [20] . انّ سهولة الحصول على المياه يمكن أن تعطّل تكوّن مجتمع السّكان في الأماكن المرويّة جيّدا . وعلى العكس من ذلك فقد كان لا بدّ ، في الأماكن الجافّة ، من التّعاون على حفر آبار ، وعلى مدّ قنوات لسقي الماشية . فأنت ترى أنّ النّاس في هذه الأماكن مجتمعون منذ زمان لا نكاد نذكر بدايته ، اذ لم يكن للارض بدّ من أن تظلّ مقفرة أو أن يحوّلها عمل الانسان الى أرض يأوي اليها . ولكنّ ميلنا الى ردّ كلّ الامور الى ما ألفناه يقتضي أن نتأمّل فيما قلناه بعض الشّيء .

لقد كانت الحالة الأولى للارض تختلف كثيرا عن الحالة التي هي عليها اليوم ، سواء أنظرنا اليها وقد زيّنتها يد الانسان أو وقد قبّحتها . فانّ ما زعمه الشّعراء من عماء في العناصر، إنّما كان سائدا فيما تنبته الأرض.ففي تلك الأزمان البعيدة، حيث كانت الانقلابات كثيرة الوقوع وحيث كانت طبيعة التّربة،وهيئات الأرض يغيّرها ألف طارىء وطارىء ، كان كلّ شيء ينمو بشكل فوضوي : الأشجار والخضر والشّجيرات والحشائش . فلم يكن أيّ نوع من هذه الأنواع يجد من الوقت ما يسعه ليستولي على أنسب الأراضي له فيضيق فيها الخناق على ما سواه من الأنواع . بل كانت الأنواع كلّها تتفارق ببطء ، رويدا رويدا ، ثمّ كان يطرأ انقلاب يخلط كلّ الأشياء من جديد .

انّ العلاقة التي بين حاجات الانسان وما تنبته الأرض لهي من الوثاقة بحيث يكفي أن تكون الأرض آهلة حتّى يستمرّ كلّ شيء. ولكن، قبل أن يتمّ للأفراد المجتمعين ان يقيموا بأعمالهم المشتركة توازنا بين نباتات الأرض، فقد كان استمرار تلك النباتات كلّها يقتضي أن تتولى الطبيعة وحدها اقامة ذلك التوازن الذي تحفظه اليوم يد البشر . ولقد كانت تحافظ على ذلك التّوازن أو تعيده بواسطة انقلاباتها مثلما أنّ البشر يحافظون عليه ويعيدونه بواسطة تقلّباتهم . انّ ما لم يكن بعد سائدا بينهم من الحرب ، انّما كان يبدو سائدا بين العناصر . فانّ البشر لم يعتادوا احراق المدن ، ولا حفر المناجم ولا اقتلاع الأشجار ؛ ولكنّ الطّبيعة كانت تشعل

البراكين وتثير ارتجاجات الارض ؛ كما كانت نار السّماء تلتهم الغابات . لقد كانت الصّاعقة أو الطوفان أو التبخّر تفعل في بضع ساعات ما يفعله اليوم مائة ألف ساعد من الرجال في مدّة قرن . لا أستطيع أن أفهم ـــ على غير هذا الوجه ـــ كيف كان يمكن لهذا النّظام أن يبقى ولهذا التوازن أن يثبت . فلولا ذلك لابتلعت بطول المدّة أكبر الأنواع في النّظامين العضويين أصغرها [21] ، ولما أضحت الأرض بعد ذلك مكسوّة بغير الاشجار والحيوانات المفترسة ولباد كلّ شيء في النّهاية .

ولولا ذلك لفقدت المياه رويدا رويدا من دورانها الذي يحيي الأرض ولانحطّت الجبال وانخفضت ولأجحفت الأنهار رملا ولامتلأت البحار وامتدّت ولمالت كلّ الاشياء من حيث لا تدري الى الاستواء . انّ يد النّاس توقف هذا الانحدار وتعطّل هذا التطوّر . فلولاهم لتزايدت سرعته ولربّما كانت الارض الآن تحت المياه . لقد كانت عيون الماء (قبل أن يتولّاها) العمل البشري أشدّ تفاوتا في انتشارها وأقلّ اخصابا للارض وأعسر ارواء للسّكان . وغالبا ما كانت كذلك تخرج عن مجاريها لأنّ صناعة الانسان لم تكن تحبسها فيها ، فتندفق ذات اليمين وذات الشّمال وتغيّر من وجهتها ومن مجاريها وتتفرّع الى عدّة فروع . فكنت تارة تجد أنّها قد نضبت وطورا تجد أنّ الأوعاس تحول دون اقترابك منها . فكانت كما لو لم تكن أبدا ، وكان النّاس يموتون من العطش وهم وسط المياه .

فكم من بلد جافّ لم يكن يسكن الّا بفضل ما جلبه النّاس من مجاري وقنوات من الأنهار : تكاد بلاد الفرس بأكملها لا تعيش الّا بهذا الاصطناع . وشعوب بلاد الصّين كالنّمل (في كثرتهم) بفضل ما فيها من القنوات العديدة . ولولا ما في هولاندا من القنوات لغمرت مياه الأنهار النّاس ، تماما كما كانت تغمرهم سيول البحر لولا (ما يقيمونه من) السّدود . وكذلك مصر ، أخصب بلاد الأرض ، فانّها لا تسكن لولا العمل الانساني : فسهولها الكبرى التي تنعدم فيها الأنهار ، والتي ليس في أرضها ما يكفي من المنحدرات ، لا تملك من الموارد الّا الآبار . فاذا كان أوّل ما يذكر في التّاريخ من الشّعوب لم يسكن في الأراضي

الدّسمة أو على الشّواطىء السّهلة ، فليس ذلك لأنّ هذه المناخات الطّيبة كانت مقفرة ولكن لأنّ سكّانها المتعدّدين ، لمّا كان يمكنهم أن يستغنوا عن بعضهم ، فقد عاشوا مدّة أطول وهم منعزلون في عائلاتهم ، وبدون تواصل . أمّا في الأماكن الجافّة التي لم يكن بالامكان الحصول فيها على الماء الّا بواسطة الآبار فقد كان من الضّروري التّجمع لحفرها أو على الأقلّ الاتّفاق على استعمالها . ذلك هو أصل المجتمعات وذلك هو أصل اللّغات في البلدان السّاخنة .

هناك انعقدت أولى الرّوابط بين العائلات ، وهناك تواعد الجنسان أوّل ما تواعد . لقد كانت الفتيات يأتين لورد الماء للعائلة ، وكان الفتيان يأتون لسقي قطعانهم . هناك طفقت العيون التي قد كانت تعوّدت رؤية نفس الأشياء منذ الصّبى ، ترى من الاشياء ماهو أحلى . فتأثّر القلب لرؤية هذه الاشياء الجديدة ، واذا بميل لم يعهده من قبل جعله أقلّ توحّشا ، واذا به يحسّ بلذّة أن لا يكون وحيدا . لقد أصبح الماء وهم لا يشعرون أشدّ ضرورة ، وتكاثر عطش الماشية فأضحوا يتعجلون الذهاب وأمسوا يأسفون للأوبة. لم يكن ثمّة في ذلك الزمن السعيد ما يشير الى الساعات ولم يكن ثمة ما يدعو لحسابها. لم يكن للزمن من مقياس الا المرح او القلق. هناك تحت شجرات سنديان عجائز قهرت السنين، شباب متلهف راح يتنسى وحشيّته رويدا رويدا.لقد كانوا يتراوضون شيئا فشيئا. فتعلموا الافصاح عن مقاصدهم لأنهم سعوا الى أن يفهموها. هناك انعقدت أولى الاحتفالات فكانت الارجل تنطّ من الفرحة. لم تعد الاشارة العجلى تكفيها، فرافقها الصوت بنبرات هائمة، وامتزج الشوق باللذة عندهم : ها هنا كان مهد الشعوب الحقيقي، ومن صفاء مياه العيون النقية سرت نيران الحب الأولى .

ولكن : هل كان النّاس قبل هذا الزّمان يولدون من التّراب ؟ وهل كانت الأجيال تتوالى من دون أن يجتمع الجنسان ومن دون أن يتفاهم النّاس ؟ كلّا : فقد كان ثمّة عائلات ولكن لم يكن ثمّة أمم أبدا . كان ثمّة لغات أهليّة ولكن لم يكن ثمّة ابدا لغات شعبية، كان ثمة زواج ولكن لم يكن ثمة حبّ أبدا . لقد كانت كل عائلة تكتفي بنفسها، وتبقى من دون أن تختلط بغير دمها . فالاطفال

الذين يولدون من نفس الاباء ، كانوا ينمون معا ويهتدون رويدا رويدا الى طرق في التفاهم . لقد كان الجنسان يتمايزان بتقدّم العمر وكان الميل الطبيعي كافيا لجمعهما . كانت الغريزة تحلّ محلّ التفضيل وكان الناس يتحوّلون الى زوج وزوجة من دون أن ينقطع كونهم أخا وأختا [22] . لم يكن في كلّ هذا من متوقّد المشاعر ما يكفي لحلّ عقال اللّسان ولا ما يستحثّ نبرات الأهواء المتلهّفة ليحولها الى مؤسسات . وعلى هذا فليُقَسْ ما يمكن أن نقوله عن الحاجات النّادرة والمتأنّية التي قد كان يمكنها أن تحمل بعض النّاس على الاسهام في أعمال مشتركة . فهذا يشرع في بناء حوض لعين الماء وذاك يكمله من بعده . وغالبا ما كان ذلك يتمّ من دون أن يحتاج الى أيّ اتّفاق ، بل وأحيانا من دون أن يرى بعضهم بعضا . وباختصار فلقد كان لا بدّ في المناخات المعتدلة وفي الأراضي الخصبة من تعبئة العواطف الجميلة بكلّ حيويّتها حتّى يُشرع في انطاق السّكان . ولمّا كانت اللّغات الأولى بنات اللّذة لابنات الحاجة ، فقد ظلّت طويلا تحمل طابع الأب ، ولم تمح نبرتها المغرية الّا بامحاء العواطف التي ولّدتها ، حينما انتشرت بين الناس حاجات جديدة أجبرت كل امرىء على ان لا يفكّر الا في نفسه وعلى أن ينزوي بقلبه الى باطن ذاته .

الفصل العاشر

ــ تكوّن لغات الشّمال ــ

يصبح كلّ النّاس بمرور الزّمن متشابهين ، الّا أنّ نظام تقدّمهم يختلف . ففي المناخات الجنوبيّة حيث الطّبيعة المعطاء ، تتولّد الحاجات من الأهواء : أمّا في البلاد الباردة حيث الطّبيعة الضنينة ، فتتولّد الأهواء من الحاجات . فتنطبع اللّغات ، سليلات الحاجة البائسة ، بطابع منشئها الخشن .

ومهما كان صبر الانسان على تقلّبات الهواء وعلى البرد والقلق بل وعلى الجوع ، فثمة رغم ذلك حدّ تنهزم عنده الطبيعة (البشريّة) . فما كان من الأشياء المعرضة إلى هذه المحن القاسية ، اضمحلّ ، وما بقي نما واشتدّ . ليس ثمّة وسط بين القوّة والموت . وهذا هو السّبب فيما للشعوب الشّماليّة من القوّة . فانّ ذلك لا يعود الى المناخ بالدّرجة الاولى ، بل الى انّ المناخ لم يصبر الّا على الأقوياء منهم . ولا عجب في أن يحتفظ الاطفال بما لآبائهم من البنية الطيّبة .

وانّنا لنرى من مجرّد ما سبق أنّه لا بدّ أن يكون للرّجال الاقوى أعضاء أقل رهافة من أعضاء غيرهم ، وأصوات أغلظ وأثخن من أصوات غيرهم بل وأيّ فرق

عندهم بين تغايرات الصوت المؤثرة النابعة مما يعتمل في الرّوح وبين ما تستصرخه الحاجات الطبيعية من الأصوات؟ ففي هذه المناخات حيث يخيم الموت على كل الأشياء على امتداد تسعة اشهر من السنة وحيث الشمس لا تبعث الدفء في الهواء بضعة أسابيع إلا لكي تشعر الناس بما حرموا منه من الخيرات، فتزيد في شقائهم؛ وفي هذه الأماكن التي لا تمنح الأرض فيها شيئا إلّا على قدر العمل، وحيث ينبوع الحياة يبدو مستقرّا في السّواعد أكثر ممّا هو مستقرّ في القلب، ما كان يخطر للنّاس أن يستعذبوا غير ما عندهم من الرّوابط الّا نادرا، بل كانت روابطهم مقتصرة على دوافعها الحسيّة. فاذا الصّدفة اختيار واذا الاسهل هو الافضل واذا الراحة التي تغذي العواطف قد حل محلها العمل الذي يكبتها. فلقد كان لزاما على المرء أن يفكّر في العيش قبل أن يفكّر في رغد العيش. ولما كانت حاجة الناس بعضهم إلى بعض أفلح في جمعهم من العاطفة، فان المجتمع لم يتكون إلا بالصناعة: انّ خطر الموت الدائم لم يكن يسمح لهم بأن يكتفوا بلغة الاشارة. فان أوّل ما تلفظوا به من العبارات لم يكن « أحبّوني » ولكن « ساعدوني ».

فهاتان الكلمتان تنطقان على تشابههما بنبرة مختلفة، اذ ما كان على المرء أن يحسّس غيره بشيء، بل كان عليه أن يسمعه كلّ شيء. لم يكن الأمر اذن متعلّقا بالطّاقة بل كان متعلّقا بالوضوح. لقد عوّضوا ما لم يكن القلب يعطيه من النّبر بمقاطع متينة ومحسوسة. فان وجد في شكل اللّغة بعض انطباع طبيعيّ، فلقد كان يزيد فيما لها من الخشونة.

وفعلا فانّ الشّماليين ليسوا بدون عواطف. ولكنّ ما لهم منها من جنس مختلف. فالعواطف في البلدان السّاخنة عواطف شبقة مرتبطة بالحبّ والنّعومة: فلا يكاد يبقى على السّكان شغل من فرط ما توفّره لهم الطّبيعة. فلا يكاد الأسيويّ يظفر بالنّساء والرّاحة حتّى يشعر بالبهجة. أمّا في الشّمال حيث يكثر الاستهلاك على أرض قاسية. فانّ أناسا لهم كلّ تلك الحاجات يسهل اضجارهم، ويقلقهم كلّ ما يفعل حولهم. وانّهم لفرط ما كان عيشهم عسيرا ليزدادون تمسّكا بالقليل الذي لهم بقدر ما يزداد فقرهم. فان أنت اقتربت منهم،

فقد اعتديت على حياتهم . ذلك مصدر ماهم من المزاج العصبي الذي ما أسرع أن ينقلب الى حنق على كلّ ما يجرحهم . وهكذا فانّ أقرب أصواتهم الى الطّبيعة أصوات الغضب والتوعّد ، ودائما ما تُصاحب هذه الأصوات مقاطع قويّة تجعلها خشنة ومدوّية .

الفصل الحادي عشر

تأملات في هذه الاختلافات

تلك هي في رأيي أعمّ الأسباب الطبيعية للفرق الذي يخص اللغات البدائية . فلغات الجنوب لا بدّ أنها كانت حيّة ورنّانة ونابرة وبليغة وكثيرة الغموض من فرط متانتها . أمّا لغات الشمال فلا بدّ أنها كانت صماء خشنة ، مقطعة وحادّة ورتيبة وواضحة من فرط ما فيها من الكلمات لا من حسن تركيبها . وما يزال في اللغات الحديثة برغم كونها قد عجنت وأعيد صهرها مائة مرة ومرة، بعض هذه الفروق . فالفرنسية والانقليزية والألمانية هي اللسان الخاص الذي يتكلم به أولئك الذين يتعاونون ويفكرون فيما بينهم بهدوء ، أو يتكلم به أولئك المتحاملون الذين يغضبون .

ولكن رسل الالهة الذين يكشفون عن الألغاز المقدّسة والحكماء الذين يهبون القوانين للشعب ، والقواد الذين يجرّون الجمهور ، لا بدّ أن يتكلموا العربية أو الفارسية [23] . فلغاتنا مكتوبة أفضل مما هي منطوقة . وانه ليلتذّ بقراءتنا أكثر مما يلتذّ بسماعنا . وعلى العكس من ذلك فان اللغات الشرقية تفقد إذا ما كانت

مكتوبة حيويتها وحرارتها . فليس المعنى الا نصف كامن في الكلمات ، وكل قوته انما هي في النبرات . ان من يحكم على عبقرية المشارقة من خلال كتبهم كمن يريد أن ينظر الى جثّة الانسان ليرسم صورته .

ان الحكم الصائب على أفعال الناس يقتضي أن ننظر الى هؤلاء في كل علاقاتهم . وهو ما لم نتعلم أبدا أن نفعله . فنحن عندما نضع أنفسنا موضع الآخرين ، فاننا نضع أنفسنا بما طرأ علينا من التغير لا بما يجب أن يطرأ عليهم . وعندما نظنّ أننا نحكّم عليهم بالعقل ، فاننا في الواقع لسنا الا مقارنين لأحكامهم المسبقة بأحكامنا المسبقة . فانك لترى الذي له بعض معرفة باللغة العربية يبتسم اذ يتصفح القرآن ، ولعمري ، إنه لو انصت الى محمد يقرأه بنفسه في تلك اللغة البليغة والموقعة ، وبذلك الصوت الجهوري المقنع الذي كان يستهوي الأذن قبل أن يستهوي القلب ، ولو أنصت اليه اذ لا ينفك ينفث في حكمه نبرة وحماسا ، لسجد على الأرض من الرهبة ثم لناداه ألا أيّها النبي الأعظم ، الا يا رسول الله خذنا الى المجد والشهادة : نريد أن نغلب أو أن نموت في سبيلك . ان التعصب ليبدو لنا دائما مضحكا ، اذ ليس له بيننا صوت يعبر به عن نفسه . وحتى متعصبونا فانهم ليسوا بمتعصبين حقيقيين ، ان هم الا نصابون او مجانين . أما لغاتنا فليس فيها الا صيحات يرسلها عبيد الشيطان بدلا عن انعطافات يشدو بها من ألهمهم الرّحمٰن .

الفصل الثاني عشر

أصل الموسيقى ونسبها

لقد تكونت أولى المقاطع أو الأصوات الأولى مع التصويتات الأولى ، وذلك بحسب جنس الهوى الذي أملى هذه أو تلك . فالغضب يستثير صيحات التوعد التي ينطق بها اللسان والحنك . ولكن صوت الحنان أعذب من ذلك ، فهو تغاير تحدثه الزردمة بحيث يصبح صوتا : غير ان نبراته تكثر أو تقل وانعطافاته تحتدّ أو تخفت بحسب الشعور الذي ينضاف اليها . وهكذا يتولد الايقاع وتتولد الاصوات مع المقاطع . ان الهوى ينطق كل الاعضاء ويزيّن الصوت بكل بريقها . وهكذا فأبيات الشعر والأناشيد والكلام من أصل مشترك . فحول عيون الماء التي تحدّثت عنها كانت الخطب الأولى هي الأغنيات الأولى . لقد ولّدت الترجيعات الدّوريّة والموزونة للايقاع والانعطافات النغمية للمنبرات ، الشعر والموسيقى مع اللغة . بل ان كل ذلك ما كان الا اللغة عينها في هذه المناخات الطبيعية والأزمان السعيدة حيث انحصرت الحاجات الأكيدة التي كانت تتطلب مساعدة الغير ، في تلك التي كان القلب يولّدها.

ان القصص الأولى والخطب الأولى والنواميس الأولى قد كانت شعرا . فلقد وجد الشعر قبل النثر . ذلك ما حدث فعلا لان الاهواء تكلمت قبل العقل . وكذلك كان شأن الموسيقى . فلم يكن ثمة في البداية من موسيقى الا النغم ولا من النغم غير ما يحدثه الكلام من تنوع الصوت . لقد كانت النبرات تكون النشيد والكميات تكون الوزن وكان الناس يتكلّمون بالأصوات والايقاع بقدر ما كانوا يتكلّمون بالمقاطع والتصويتات ويقول سترابون [24] عن الكلام والغناء انّهما كانا نفس الشيء فيما مضى . ثم يضيف ان ذلك يبيّن ان الشعر هو مصدر البلاغة [24]. لقد كان عليه أن يقول إن هذا وتلك قد كان لهما نفس المصدر، وإنّهما لم يكونا في البداية الا شيئا واحدا . أما عن الوجه الذي انتظمت به المجتمعات الأولى ، فهل كان من العجب ، أن أولى القصص وأولى النواميس قد نظمت شعْرا ؟ وهل كان من العجب أن أوّل النحاة قد أخضعوا صناعتهم الى الموسيقى ، وأنهم كانوا في الوقت نفسه أساتذة في كلتا الصناعتين ؟ [25] .

ان لغة ليست لها إلا المقاطع والتصويتات لا تملك إذن إلّا نصف ثروتها . صحيح انها تؤدي افكارا . ولكنها إذا ما أرادت أن تؤدّي مشاعر أو صورا احتاجت مع ذلك الى ايقاع وأصوات اي الى نغم . هو ذا ما كان متوفّرا في اللغة اليونانية وما يعوز لغتنا .

إنّنا ما نزال في عجب من الآثار الهائلة التي خلّفتها البلاغة والشعر والموسيقى بين اليونانيين . فنحن لا نفهم هذه الاثار لأننا لا نحسّ بمثلها . ولعل كل ما نظفر من انفسنا بأن تطاوعنا اليه أمام تأكّد الشهادات بذلك هو أن نتظاهر بتصديقها مجاملة لعلمائنا [26] .

ولقد عمد بورات ، اذ ترجم على قدر طاقته بضعة قطع من الموسيقى اليونانية الى ترقيمات موسيقانا ، إلى أن يشرف بكل بساطة ، على عزفها في أكاديمية الآداب ، وتصابر على سماعها رجال الأكاديمية . واني لأقدّر كلفة هذه التجربة في بلد لا يمكن أن تفك رموز موسيقاه أية أمّة أخرى . فلتعرضوا على من أردتم من الموسيقيين الأجانب ان ينجزوا عزفا منفردا للأوبيرا الفرنسية . اتحداكم ان تفهموا

شيئا من ذلك . ومع ذلك فهؤلاء الفرنسيون هم بالذات أولئك الذين أدّعوا القدرة على الحكم على بعض أناشيد بيندار التي مرّ على وضعها موسيقيّا ألفا سنة .

لقد قرأت أن الهنود في أمريكا ، كانوا ، فيما مضى ، عندما يشاهدون المفعول العجيب للأسلحة النارية ، يلتقطون من الأرض حبّات بندقية الفتيلة ، ثم يرمونها بأيديهم وهم يحدثون بأفواههم دويا كبيرا ، فكانوا يعجبون من أنهم لم يقتلوا أحدا. ان خطباءنا وموسيقيينا وعلماءنا ليشبهون هؤلاء الهنود. العجب ليس أننا لم نعد نفعل بموسيقانا ما كان يفعله اليونانيون بموسيقاهم بل لعل العجب يحدث على العكس من ذلك لو أننا بمثل هذه الالات المختلفة نفعل عين ما فعلوا .

الفصل الثالث عشر

في النّغـــم

ما من أحد يشكّ في أن الانسان تغيّره حواسّه . ولكن عدم تمييزنا بين التغيرات يجعلنا نخلط بين أسبابها . فان ما ننسبه من السلطان للاحساسات قليل بل قليل جدا. فنحن لا نرى أنها غالبا ما تؤثر فينا لا كاحسسات فقط ولكن أيضا كعلامات أو صور ، وأن آثارها الأدبية لها أيضا أسباب أدبيّة . فمثلما أن المشاعر التي يثيرها فينا الرسم لا تأتي أبدا من الألوان ، فان سيطرة الموسيقى على أرواحنا ليست أبدا من عمل الأصوات . فان ألوانا جميلة ومحكمة التدرّج تروق النظر . ولكن هذا الالتذاذ هو التذاذ بالاحساس فقط ، وإنّما التصوير والمحاكاة هما اللذان يعطيان هذه الألوان حياة وروحا . فالعواطف التي تعبر عنها تلك الألوان هي التي تؤثّر في عواطفنا ، والأشياء التي تمثلها تلك الألوان هي التي تحدث فينا انفعالات . فليس لاهتمامنا وشعورنا ارتباطا بالألوان . فمعالم اللوحة الفنية المؤثرة ، تؤثر فينا ولو كانت في صورة منسوجة . فلتحذفوا هذه المعالم من اللوحة ، إذن لن يكون للألوان بعد ذلك أيّ مفعول .

ان فعل النغم في الموسيقى هو عين فعل التصوير في الرسم ، إذ هو الذي يبرز المعالم والأشكال التي ليست التآلفات والأصوات إلا ألوانها . وقد يعترض بعضهم بأن النّغم ليس إلا سلسلة من الأصوات . لا شكّ في ذلك ولكنّ التصوير ليس أيضا الا انتظاما للألوان . فالخطيب يستخدم الحبر ليدوّن مخطوطاته . فهل سنقول لذلك أن الحبر هو محلول بليغ جدّا ؟

فلتتصوروا بلدا لا يكون للناس فيه أيّ فكرة عن التصوير ، بل يكثر فيه من يظن أنه قد امتاز في فن الرسم لأنه يقضي حياته وهو يخلط الألوان ويمزج بعضها ببعض ويوفقها. سيعتبرون رسمنا تماما مثلما نعتبر موسيقى اليونانيين. وعندما نحدّثهم عن التأثير الذي تتركه فينا اللوخات الجميلة وعمّا في تعشّق لوحة مثيرة من الفتنة ، فسرعان ما سيتعمّق علماؤهم في المسألة فيقارنون ألوانهم بألواننا ، وينظرون فيما إذا كان اللّون الأخضر عندنا أرق ممّا عندهم أو فيما إذا كان اللون الأحمر عندنا أشدّ بريقا . سيبحثون عن تألفات الألوان التي يمكن أن تبكي وعن تلك التي يمكن أن تغضب ؛ كذلك ، سيعمل الـ« بواريت » على ان يجمعوا فوق رداء مهترىء خرقا مشوّهة من لوحاتنا ثم يتساءلون في دهشة عن العجب في هذه الألوان .

فاذا ما بدأ الناس في بعض الأمم المجاورة في رسم بعض الخطوط أو بعض الملامح من التصوير ، أو بعض الأشكال التي ما تزال غير مكتملة، فان كل ذلك سيعتبر مجرد خربشة أو مجرّد رسم شاذّ وباروكيّ . ولسوف يتمسك حفاظا على الذّوق السليم بهذا الجمال البسيط الذي قد لا يعبر بحق عن شيء ، ولكنه يعرض على الناس تدرّجات لامعة الجمال وألواحا محكمة التلوين وتدرجا لا ينتهي من الاصباغ التي لا ملامح فيها لشيء .

وأخيرا ، فلقد يتوصل بمفعول التقدم الى تجربة المنشور . سيسارع ساعتها بعض مشاهير الرسامين الى ان يؤسّس على ذلك نسقا رائعا . سيقول لهم ، ان التفلسف الحقيقي يقتضي ، ايها السادة ، أن نرتفع الى الأسباب الطبيعية . هو ذا تحلّل الضوء.هي ذي كل الألوان الأولية . هي ذي علاقاتها ونسبها . تلك هي

مبادىء اللذة الحقيقية التي يعطيكم إيّاها الرسم . ان كل هذه الكلمات الرهيبة ، كلمات « التصوير » و« التمثيل » و« الشكل » ، لهي محض تدجيل يتعاطاه الرسامون الفرنسيون ، إذ يظنّون أنهم بمحاكاتهم يولّدون ما لست أدري من الحركات في النفس في حين نعرف أنه ليس فيها إلا إحساسات . يقولون لكم أشياء عظيمة عن لوحاتهم ، ولكن انظروا الى ألواني .

ولسوف يواصل قائلا ان الرسامين الفرنسيين ربّما لاحظوا قوس قزح ، ولعل الطبيعة قد غرست فيهم بعض الميل الى التدرج ، وقد تكون فطرتهم على مزج الألوان . أما أنا فقد أظهرت لكم المبادىء الكبرى والحقيقية للفنّ ؛ فما بالكم بالفن ! بل وبكل الفنون وكل العلوم يا أيّها السادة ! ان تحليل ألوان المنشور وحساب انكسارات ضوئه يمكنانكم من ادراك النسب الحقيقية الوحيدة التي هي موجودة في الطبيعة . كما يمكنانكم من قانون كل النسب . ولكن كل شيء في الكون ما هو الا نسبة . إذن فالمرء يعرف كل شيء عندما يحذق الرسم ويعرف كل شيء عندما يحذق الملاءمة بين الألوان .

فما عسى أن يكون موقفنا من ذلك الرسام الذي ينساق من نقص شعوره وذوقه الى مثل هذا التفكير وإلى أن يقصر حمقا ما يجلبه لنا الرسم من لذّة على المظهر الحسّي من فنّه ؟ وما عساه يكون موقفنا من ذلك الموسيقيّ الذي يذهب به الظنّ من فرط ما امتلأ بمثيلات هذه الأحكام المسبقة الى اعتبار تناسب الانغام وحده مصدر ما تخلّفه فينا الموسيقى من عظائم الآثار ؟ لنرمين بالأول إلى أخشاب البيوت يزيّنها ، ولنحكمنّ على الثاني بأن لا ينجز الا الأوبيرات الفرنسية .

ولما لم يكن الرسم فن التوفيق بين الألوان بشكل يروق النظر ، فان الموسيقى ليست كذلك فن التوفيق بين الأصوات بشكل يروق الأذن . ولو لم يكن ثمة إلا ذلك لما كانتا الا في عداد العلوم الطبيعية لا في عداد الفنون الجميلة . فالمحاكاة وحدها هي التي ترفعهما لى هذه المنزلة . ولكن ما الذي يجعل من الرسم فن محاكاة ؟ انه التصوير ! وما الذي يجعل من الموسيقى فنّ محاكاة آخر ؟ انه النغم .

الفصل الرابع عشر

فــي التّصـــاوت

ان جمال الأصوات طبيعي ومفعولها حسّي صرف . فهو ينتج عن تظافر مختلف جزئيات الهواء التي يحرّكها الجسم المصوّت وتحرّكها كل المنازل التامّة التي ينقسم إليها الى ما قد لا ينتهي . ويعطي كل ذلك معا احساسا طيّبا . فكل من في الكون سيلتذّون بسماع أصوات جميلة ولكنّ لذّتهم لن تكون لذّة كبرى إذا ما كانت لا تحرّكها انعطافات نغميّة معروفة لديهم ، وسوف لن تتحول تلك اللذة الى بهجة حقيقية . فان الأذن ستجد أعذب الأناشيد عندنا رديئة إذا هي لم تألفها . فتلك لغة لا بدّ أن يكون معجمها بين أيدينا .

وأمّا حال التصاوت ، فهو في حدّ ذاته أسوأ من ذلك الحال . فهو لكونه لا يحوي من الجمالات الا الاصطلاحي ، لا يطرب الآذان التي لم تألفه . فلا بدّ أن يكون للمرء تعوّد كبير عليه حتّى يحس به ويتذوّقه.فالآذان الخشنة لا تجد في ما لنا من التصاوت إلا دويّا ، ذلك أنه ليس من العجب أن ينقطع الالتذاذ الطبيعي عندما تتغيّر النسب الطبيعية .

ويحتوي الصوت (عموما) على كل الأصوات التصاوتية الملازمة له وذلك في نسب من القوة والمسافات لا بدّ أن تكون بينها لكي تعطي أكمل تصاوت لذلك الصوت . فلتضيفوا اليها الفاصلة الثلاثية أو الفاصلة الخماسية أو أي تساوق صوتي آخر ؛ فانكم لا تضيفونها بل تضاعفونها . تبقون على نسبة المسافة ولكنكم تغيّرون نسبة القوة . وعندما تشدّدون تساوقا صوتيّا دون التساوقات الاخرى فانكم تكسرون التناسب . تريدون ان تفعلوا خيرا من الطبيعة ، فما تفعلون الا أقبح منها . فآذانكم وذوقكم قد أفسدها فن لا تفهمونه ، فليس ثمّة بالطّبع من تصاوت غير التصادي .

ويزعم السيد رامو أن الأصوات الحادّة إذا ما كانت على قدر ما من البساطة ، فهي توحي بصفة طبيعية بما يقابلها من الأصوات الغليظة ، وأن رجلا له أذن مستقيمة وغير متمرسة سينشد بصفة طبيعية هذا الصوت الغليظ . ان هذا لهو حكم مسبق نجده عند الموسيقيين ، وتكذّبه كل التجارب . فان من لم يسمع قطّ لا صوتا غليظا ولا تصاوتا لن يجد من تلقاء نفسه لا هذا التصاوت ولا ذلك الصوت . وليس ذلك فقط ، بل سوف لن تعجبه إذا ما أسمعناه اياها وانه لسوف يفضل التصادي البسيط كثيرا .

وأنّى يمكننا مهما أنفقنا ألف سنة في حساب نسب الأصوات وقوانين التصاوت أن نجعل من هذا الفن فن محاكاة ؟ فأين مبدأ هذه المحاكاة المزعومة وما الذي يعبّر عنه التصاوت ثم ما الذي يجمع بين تسويات الأنغام وعواطفنا ؟

فلنطرح نفس هذا السؤال عن النغم ، إذن سيأتينا الجواب من تلقاء نفسه . فهو في ذهن القرّاء مسبّقا . ان النغم في محاكاته لانعطافات الصوت يعبّر عن الأنّات وعن صيحات الألم أو الفرحة وعن التواعدات وعن التأوّهات . فكل علامات العواطف الصوتية من اختصاصه . فهو يحاكي نبرات اللغات ويحاكي التراكيب التي تتناسب في كل لسان مع حركات معيّنة للنفس . ان النغم لا يحاكي فقط بل يتكلّم . ولغته التي لا مقاطع فيها ولكنّها حيّة حارّة متلهّفة فيها من الطّاقة مائة مرّة أكثر مما في الكلمة نفسها . ها هنا مولد ما للمحاكاة

الموسيقية من قوة . ها هنا مولد ما للغناء على القلوب الحساسة من سلطان وقد يمكن أن يكون للتصاوت بعض القسط في ذلك ، بما يربطه في بعض الأنساق من تسلسل الأصوات ببعض قوانين الانتقال من نغمة إلى أخرى ، وبتقويم النبرات وباشهاد الأذن وتحسيسها بتلك الاستقامة وبتقريب رائع الانعطافات وتثبيتها على مسافات متصاوتة ومتصلة . ولكنه بما يضعه من العوائق أمام النغم يجرّده من الطاقة ومن التعبير . فيمحو النبرة المتلهفة ويعوّضها بالمسافة التصاوتيّة ويخضع الى مقامين اثنين فقط أناشيد قد كان يمكن أن يكون لنا منها بقدر ما ثمّة من النبرات الخطابية ، ويمحو ويطمس أعدادا من الأصوات أو من المسافات التي لا تدخل في نسقه . وباختصار فانه من فرط ما يفصل بين الغناء ، والكلمة يجعل هاتين اللغتين تتصارعان وتتعارضان وتتجاردان من كل خصائص الحقيقة . فلا يمكنهما أن تجتمعا في موضوع مؤثّر إلا ويكون ذلك أمرا مضحكا . ذلك هو السبب الذي جعل الجمهور يعتبر أن التعبير عن العواطف المتينة والجدية بالغناء أمر سخيف . لأنه يعرف أن هذه العواطف لا تجد في لغاتنا ما يعبر عنها من الانعطافات الموسيقية ، وأن رجال الشمال كالتمّ لا يموتون وهم يغنّون.

ان التصاوت وحده غير كاف حتّى بالنسبة للنعابير التي لا تبدو تابعة إلا له . فالرّعد وخرير المياه والرياح والعواصف لا يمكن ان تؤدّى بمجرد تسويات . ومهما حاولنا فان الدّوي وحده لا يعني شيئا بالنسبة للذّهن . لا بدّ أن تتكلم الأشياء لكي نفهمها . لا بدّ دائما في كل محاكاة أن يعوّض نوع من الكلام صوت الطبيعة . يخطىء الموسيقي الذي يريد أن يؤدّي دويا بدوي . وهو لا يعرف من فنه لا القليل ولا الكثير ، بل يحكم عليه بدون ذوق وبدون دراية . فلتعلّموه أنه يجب عليه اداء الدويّ بالغناء، وأنه إذا ما أراد أن يجعل الضفادع تنقنق فلا بدّ له أن يجعلها تغنّي ، إذ لا يكفيه أن يحاكي بل لا بدّ له أن يؤثّر في الناس وأن يعجبهم والا لم تكن محاكاته الشاحبة شيئا ولم تحدث أي أثر لأنّها لم تجلب أيّ اهتمام .

الفصل الخامس عشر

في أنّ أحرّ احساساتنا غالبا ما تؤثّر فينا بواسطة انطباعات أدبيّة

ما دام الناس لا يقبلون على اعتبار الاصوات الا من حيث الاهتزاز الذي تهتز له اعصابنا، فانهم لن يدركوا المبادىء الحقيقية للموسيقى ولسلطانها على القلوب. فالاصوات داخل النغم لا تؤثر فينا كأصوات فقط ولكن كعلامات لانفعالاتنا ولمشاعرنا . فهي هكذا تثير فينا الحركات التي تعبّر عنها والتي نجد صورتها فيها . واننا لنلاحظ بعض هذا المفعول الأدبي حتى عند الحيوانات . فنباح كلب يجرّ نباح كلب آخر . وإذا سمعني قطّي أحاكي عواء ، رأيته لحينه منتبها محتارا ومضطربا ، فلا يدرك أنني أنا قلّدت صوت نظيره حتى يقعد ويطمئنّ . لم كان هذا الفرق في الانطباع ما دام لم يكن في اهتزاز الحبال الصوتية فرق ، وما دام هو نفسه قد اغترّ بذلك منذ البداية ؟

إذا لم تكن السلطة القصوى التي لاحساساتنا علينا راجعة لأسباب أدبيّة فلم كنّا إذن حسّاسين بهذا القدر إزاء انطباعات لا معنى لها عند الهمج ؟ ولم لم تكن أبلغ قطعنا الموسيقية غير دوّى أجوف في أذن كراييبي ؟ هل أعصابه من طبيعة

مخالفة لطبيعة أعصابنا ؟ لم لا تهتزّ مثلما تهتزّ أعصابنا ، ولم كانت هذه الاهتزازات تؤثّر في البعض بهذا القدر في حين يتضاءل تأثيرها في البعض الاخر الى هذا الحدّ ؟

يستدلّ على السلطة الطبيعية للأصوات ببرء وخزات الرّتيلاء . وهذا المثال يبرهن على العكس تماما ، إذ أن الأصوات التي يستوجبها شفاء كلّ أولئك الذين لسعتهم هذه الحشرة ليست أصواتا في المطلق ولا هي عين الألحان . بل لا بدّ لكلّ واحد منهم من بعض الألحان من نغم يعرفه ومن جمل يفهمها . لا بدّ للايطالي من ألحان ايطاليّة وللتركي من ألحان تركيّة فكل واحد من الناس لا ينفعل بغير ما يعرفه من النبرات ولا تهتزّ أعصابه إلا بقدر ما تعدّها روحه لأن تهتزّ . لا بد أن يفهم اللغة التي يكلّمونه بها حتى يستطيع الكلام أن يحرك سواكنه . ويحكى أن غنائيّات بارنيي قد شفين موسيقيّا فرنسيّا من الحمّى . ولكنهن قد كنّ يصبنه بها لو كان من أمّة أخرى .

ويمكن أن نلاحظ هذه الفروق عينها في الحوّاس الأخرى ، وحتّى في أقلّها رهافة . فما أعجب ما يلاحظه المرء من التغيّر في انطباع انسان قد جعل يده وبصره على شيء واحد فإذا به يجده على التوالي حيّا فجامدا . فان الاستدارة والبياض والصلابة وعذوبة الدفء ، والمتانة اللينة والانتفاخ الدّوري ، لا تعطيه ملمسا ليّنا بلا طعم ، لولا أنه يعتقد أنه يلمس قلبا مليئا بالحياة يخفق ويدقّ تحت كلّ ذلك .

واني لا أعلم من بين الحواس كلّها إلا حسّا واحدا لا علاقة له بالخلق أصلا : وهذا الحسّ هو الذّوق . ولذلك لم يكن الشره رذيلة مهيمنة الا عند أولئك الذين لا يحسّون شيئا .

فعلى من يريد التفلسف في قوّة الاحساسات أن يبدأ بأن يفصل عن الانطباعات الحسيّة الصرفة الانطباعات العقلية الأدبيّة التي ترد علينا بطريق الحواس التي لا تكون الحواس الا أسبابها العارضة. وليتحاش الوقوع في الخطا

المتمثل في أن يسند للأشياء الحسيّة سلطانا ليس لها أو سلطانا قد ورد عليها ممّا تمثله لنا من انفعالات النفس . للألوان والأصوات كتمثيلات وعلامات نفوذ كبير علينا ، ولها كمجرد موضوعات للحس نفوذ ضئيل . فقد تلهيني حينا تسلسلات من الأصوات أو من التسويات . أما أن تعجبني أو أن تستهويني ، فذلك يقتضي ان تعرض علي هذه التسلسلات شيئا ما ، لا هو صوت ولا هو تسوية ، بل شيء يؤثّر فيّ رغم أنفي . فحتى الأغاني التي ليس فيها إلا الجمال مملة إذا لم تكن معبّرة عن شيء ، إذ ليست الأذن هي التي تحمل البهجة الى القلب بقدر ما ان القلب هو الذي يحمل البهجة إلى الأذن . واني لأظنّ أننا لو توسعنا أكثر في هذه الأفكار ، لتجنّبنا الوقوع في الكثير من البراهين الحمقاء المتعلقة بالموسيقى القديمة . ولأكوننّ واهما إن لم تصبح الفلسفة وبالا على الذّوق السليم وعلى الفضيلة معا في هذا القرن الذي يجتهد فيه الناس في أن يعتبروا كل أفعال الروح ماديّة وفي أن يجرّدوا المشاعر الانسانيّة من كل خلق .

الفصل السادس عشر

في التّناسب الكاذب بين الألوان والأصوات

لم تغادر الملاحظات الفيزيائية عند اعتبارها للفنون الجميلة أي لون من ألوان العبث . فلقد عثروا في تحليل الصوت على نفس النسب التي في تحليل الضوء . فتثبّتوا لحينهم في حماس بهذا التناسب من دون مراعاة للتجربة وللعقل . لقد شوّشت الذهنية النسقية كل الأشياء ، ولما عجز الناس عن أن يخاطبوا الاذان بالرسم ، عمدوا الى مخاطبة العيون بالغناء . لقد رأيت هذا المعزف الذي يتحدثون عنه ، والذي ادّعوا أنه بالامكان أن نستخدمه في اخراج الأصوات الموسيقية بالألوان . ان عدم التفطن الى أن مفعول الألوان كامن في دوامها وإلى أن مفعول الأصوات كامن في تسلسلها ، ليدلّ على معرفة سيّئة جدّا بأحوال الطبيعة .

فالزينة بكل ما تزخر به من المظاهر تنتشر دفعة واحدة على سطح الأرض . وان المرء ليلمح كل شيء من الوهلة الأولى . ولكنه يزداد فتنة بقدر ما يطيل النظر . فلا يطلب منه الا أن يظل مفتونا متأمّلا بلا انقطاع .

وأمّا الصوت فشأنه غير ذلك . فان الطبيعة لا تحلّله أبدا ولا تفصل بين قواسمه : بل تخفيها تحت حجاب التصادي ،أو هي إن فصلتها أحيانا (مثلما قد يحدث) في تغاير نغمات الغناء عند الانسان أو في ترانيم بعض العصافير ، فبجعلها متعاقبة ، واحدة بعد واحدة . انها توحي بالأغاني ولا توحي بالتسويات وتملي علينا أنغاما ولا تملي تصاوتا . فالألوان زينة الكائنات الجامدة ، إذ كلّ مادّة فهي ملوّنة : ولكنّ الأصوات تشير الى الحركة . فالصوت يشير الى كائن حاسّ ، والأجسام الحيّة هي وحدها تغنّي . ان عزف الشبابة ليس من عمل عازف آلي ، بل هو من عمل عازف قد قدّر نفخ الهواء فيها وحرّك أصابعه (على ثقبها) . .

وهكذا فلكل حسّ حقله الخاص به . فحقل الموسيقى هو الزمن ، وحقل الرسم هو المكان . ولذلك فالزيادة في ما نسمعه في آن واحد من الأصوات أو تعديد الألوان واحدا بعد الآخر ، انما هو تغيير لاقتصادها ، واحلال للعين محلّ الأذن والأذن محلّ العين .

تقولون : مثلما أن كل لون فهو محدّد بزاوية انكسار الشعاع الذي يعطيه ، كذلك فان كل صوت فهو محدد بعدد اهتزازات الجسم المصوت في وقت معلوم . ولما كانت نسب هذه الزوايا هي غير نسب تلك الاعداد ، فان تناسبها واضح . فليكن ! ولكن هذا التناسب من طبيعة عقليّة لا من طبيعة حسيّة ، وليس الشأن متعلقا بذلك . فأوّلا ، ان زاوية الانكسار محسوسة وقابلة للقيس ؛ وليس ذلك هو شأن عدد الاهتزازات . فالأجسام المصوّتة تغيّر بلا انقطاع من أبعادها وأصواتها ، إذا ما جعلت تحت تأثير الهواء . والألوان فهي تدوم ، وأمّا الأصوات فتنطفىء ، وليس لنا يقين أبدا بأنّ ما تولّد منها هو عين تلك التي انطفأت . زد على ذلك أن كل لون فهو مطلق ومستقل في حين أن كل صوت إنّما هو عندنا نسبيّ ولا يتميز الا بالمقارنة فليس المصوت في حدّ ذاته أي خاصية تعرّفنا به . فهو قرار أو جواب ، غليظ أو رقيق ، بالنظر إلى صوت آخر . وأمّا في حدّ ذاته فهو لا شيء من كلّ ذلك . وكذلك في النّسق التصاوتي ، فان الصوت لا يكون بالطبيعة على أيّ وجه . فهو ليس قراريّا وليس غالبا ، وهو ليس

تصاوتيّا وليس أساسيّا ، لأن كل هذه الخصائص ما هي الا نسب ، ولأنه لما كان يمكن للنسق برمّته أن ينتقل من القرار الى الجواب ، فان كل صوت يغيّر من رتبته ومن مكانه داخل النسق ، وذلك كلّما غير النسق من درجته . ولكن خصائص الألوان لا تتمثل البتّة في نسب . فالأصفر أصفر بقطع النظر عن الأحمر والأزرق . فهو محسوس ومعروف أينما رأيته . وما ان نضبط زاوية الانكسار التي تعطيه حتّى نتأكد من أننا سنحصل على نفس الصّفرة في كلّ الأزمان .

ليست الألوان قائمة في الأجسام الملوّنة ، ولكنّها قائمة في الضّوء . فرؤيتنا للشيء تقتضي أن يكون مضاء . كذلك تحتاج الأصوات الى ما يحملها ، وتحتاج في وجودها الى اهتزاز الجسم المصوّت . وهذا امتياز آخر للرؤية ، لأن الطلوع الدّائم للكواكب هو الآلة الطبيعية التي تؤثّر فيها ، في حين أن الطبيعة لا تحدث بمفردها إلا عددا قليلا من الأصوات ، ولا بدّ من كائنات حيّة لاحداث التصاوت ، اللهم الا أن نفترض تصاوت الأكر السماويّة .

واننا لنرى مما سبق أن الرسم أقرب من الطبيعة ، وان الموسيقى أشد تعلّقا بالصناعة الانسانيّة . وكذلك فاننا نحسّ بأن أحدهما أجلب للاهتمام من الآخر ، وذلك بالذات لأنه يقرّب الانسان من الانسان أكثر مما يفعله الفنّ الآخر ؛ ولأنه يمكننا دائما من فكرة عن نظرائنا فغالبا ما يكون الرّسم ميّتا وجامدا . قد يحملكم الى أعماق صحراء ما . ولكن ما ان تبلغ الى مسامعكم علامات صوتيّة ما حتى تستشعروا وجود كائن يشبهكم بالقرب منكم . ان هذه العلامات ، إذا ما صحّ التعبير ، اعضاء الرّوح . وان هي رسمت لكم لوحة من الوحدة فانها تعلمكم بأنكم لستم وحدكم فيها . ان العصافير تغرّد ، رأمّا الانسان فهو وحده يغنّي . ولا يمكن للمرء أن يسمع الغناء ولا أن ينصت الى السمفونيات الا ليقول لنفسه في الحين أن كائنا حاسّا آخر هو هناك بالقرب منه .

وانه لامتياز كبير يتمتع به الموسيقي ، أن يقدر على تصوير أشياء لا يمكن ان نسمعها ، في حين يتعذّر على الرسام أن يتصور تلك التي لا يمكن ان نبصرها . وان أكبر آيات فن لا يستمد تأثيره إلا من الحركة أنه يقدر على أن يصنع من

تلك الحركة صورة السّكون . فالنّوم وسكون الليل والوحدة وحتى الصمت انما تدخل كلها في لوحات الموسيقى. معلوم أن الدّوي يمكن أن يحدث مفعول الصمت وأن الصمت يمكن أن يحدث مفعول الدّوي ، مثلما يقع عندما يأخذنا النوم على صوت قراءة هادئة ورتيبة ثم نفيق على انقطاعها . ولكن تأثير الموسيقى فينا قد يكون أعمق من ذلك عندما تثير فينا بواسطة حسّ ما عواطف تشبه ما نستطيع أن نثيره منها بواسطة حسّ آخر . ولمّا كان لا يمكن ان تكون النسبة محسوسة إلا أن يكون الانطباع قويّا ، فلقد تعذّر على الرسم لما كان مجرّدا من هذه القوّة أن يقلّد الموسيقى بمثل ما تقلّده هي . فلتغطّ الطبيعة كلّها في النّوم ، لن يرقد الذي يتأمّلها ، وفنّ الموسيقى أن يعوّض صورة الشيء الجامدة بصورة الانفعالات التي تثيرها حضرته في قلب من يتأمّل . فما هو بمقتصر على أن يهزّ مياه البحر وأن يذكي نيران حريق ، وأن يجري مياه الجداول ، وأن ينزل المطر ويستجرف السيول ، ولكنه سيصور الى كل ذلك فظاعة صحراء موحشة ، أو يزيد في كآبة جدران سجن داموسي ، أو يهدّىء من العاصفة ، أو يبثّ في الهواء هدوءا وسكينة ، فينشر من الأركسترا نسيما جديدا على البساتين . سوف لن يصوّر هذه الأشياء عينها ، ولكنه سيثير في النفس المشاعر التي نحسّ بها عندما نراها .

الفصل السابع عشر

في خطا من أخطاء الموسيقيّين ، مضرّ بفنّهم

انظروا كيف يدعونا كل شيء الى العودة إلى التأثيرات الأدبيّة التي تحدّثت عنها . وانظروا مدى ما يخطيء الموسيقيون الذين لا يعتبرون قوّة الأصوات الا من حيث تأثير الهواء واهتزاز الأوتار ، ومدى بعدهم عن ادراك ما تتمثل فيه قوّة هذا الفن . فبقدر ما يقربونه من الانطباعات الحسيّة يبعدونه عن أصله وينقصون من طاقته الأولية . وعندما تغادر الموسيقى النّبرة الخطابيّة ولا تتشبث إلا بالاصطناعات التصاوتية ، فانه يتزايد ما لها من الدّوي في الأذن وتتناقص حلاوتها في القلب . لقد سكتت بعد عن الكلام ، وقريبا تسكت عن الغناء ، فلا يكون لها إذ ذاك بكل ما لها من التسويات وما لها من التصاوت أيّ تأثير فينا .

الفصل الثامن عشر

في أنّه لم يكن لنسق اليونانيين الموسيقي
أيّ نسبة إلى نسقنا

كيف حدثت هذه التغيّرات ؟ لقد حدثت بموجب تغيّر طبيعي في خاصيّة اللغات . فمعلوم أن تصاوتنا هو إختراع قوطي ؛ وان أولئك الذين يزعمون أن نسق اليونانيين قائم في نسقنا ليسخرون منّا . فلم يكن ثمّة في نسق اليونانيين من التصاوت بالمعنى الذي عندنا إلا ما كان لازما لتسوية الآلات بحسب تساوقات صوتيّة كاملة . فان كل الشعوب التي لها آلات وترية مضطرّة الى تسويتها بواسطة تساوقات صوتيّة . ولكن الشعوب التي ليس لها هذه الآلات ، لها في أغانيها انعطافات صوتيّة لا نعتبرها نحن صحيحة لأنّها لا تلائم نسقنا ولأننا لا نستطيع ترقيمها . ذلك ما لوحظ في أغاني متوحشي أمريكا ، وذلك ما كان يجب ملاحظته في مسافات مختلفة من الموسيقى اليونانيّة لو درست تلك الموسيقى بأقلّ تحيّزا لموسيقانا .

لقد اعتاد اليونانيون قسمة رسومهم البيانيّة الى رباعيات مثلما نقسّم مدوّناتنا

الى دواوين . وكانت تلك القسمات عينها تتجدّد عندهم بكل دقّة عند كل رباعيّة ، مثلما تتجدّد عندنا في كل ديوان . وما كان ليمكنهم أن يحتفظوا بهذا التماثل لو تعلّق الأمر عندهم بوحدة المقام التصاوتي ، بل وما كان ذلك ليخطر بخيالهم أصلا . ولكن لمّا كانت المسافات التي يمرّ بها المرء إذ يتكلّم أصغر من تلك يمرّ بها إذ يغنّي ، فلقد كان طبيعيّا أن ينظروا في تجدّد الرباعيات داخل نغمهم الكلامي ، مثلما ننظر في تجدّد الدواوين داخل نغمنا التصاوتي .

ان التساوقات الصوتية الوحيدة التي اعترفوا بها هي تلك التي نسمّيها تساوقات تامّة . فطرحوا من عددها الثلاثيات والسداسيات . لماذا ؟ ان تعليل ذلك هو أنهم لما كانوا يجهلون مسافة البعد الصغير أو على الأقل لما كان ذلك محظور الممارسة عندهم ، ولما كانت تساوقاتهم الصوتية غير معدّلة أصلا ، فلقد كانت كلّ ثلاثياتهم الكبرى زائدة بفاصلة وكلّ ثلاثياتهم الصغرى نازلة بنفس القدر ، وبالتالي فلقد كانت سداسياتهم الكبرى والصغرى تتغير كل واحدة فيما يخصها بنفس الوجه . فليتخيّل المرء الآن ما يمكنه الحصول عليه من مفاهيم التصاوت وما يمكنه اقامته من المقامات التصاوتية بواسطة استبعاد الثلاثيات والسداسيات من عدد التساوقات الصوتية . فلو كانت تلك التساوقات الصوتية التي يقبلونها معروفة عندهم بفعل حسّ تصاوتي حقيقي لجعلوها على الأقل ضمنيّة تحت أغانيهم ، ولأعطى التساوق الصوتي للدرجات الأساسية اسمه لما كانت تلك الدرجات توحي به من الدرجات الابعاديّة ؛ وهكذا كان يكون لليونانيين أكثر مما لنا من التساوقات الصوتية ولا يكون لهم أبدا أقلّ ممّا لنا . بل لعلّهم كانوا ، إذ يتعرّضون مثلا إلى الدرجة الغليظة ut sol يسمّون الثنائيّة ut ré باسم التساوق الصوتي .

ولكن قد يتساءل البعض عن سبب وجود الدرجات الأبعادية . سنجيب بأن ذلك راجع الى غريزة تحملنا على أن نختار في لغة ذات نبروشادية أيسر ما فيها من الانعطافات الصوتية . فبين ما تحتاجه الزردمة من التغايرات الكبرى لتصدح باستمرار بكبرى مسافات التساوقات الصوتية ، وبين صعوبة تعديل الاداء في ما اشتدّ تعقيده من نسب المسافات الأصغر ، عمد العضو (الناطق) الى وضع

وسط ووقع بطبعه على مسافات أصغر من التساوقات الصوتية وأبسط من الفواصل : وهو ما لم يمنع مسافات أصغر من تلك من أن تستخدم في ألوان بلاغيّة أكثر عاطفيّة (من الكلام العادي) .

الفصل التاسع عشر

في كيف انحطّت الموسيقى

على قدر ما كانت اللغة تستكمل ذاتها ، كان النّغم بما يفرض على نفسه من القواعد ، يفقد من طاقته القديمة من حيث لا يشعر ، وكان حساب المسافات يعوّض رقّة الانعطافات فهكذا مثلا انقرضت ممارسة اللون التجانسي رويدا رويدا . وعندما أصبح للمسارح شكل منتظم ، لم يعد الموسيقيون يغنّون فيها إلا على مقامات موصوفة . وعلى قدر ما كانت قواعد المحاكاة تتعدّد ، كانت لغة المحاكاة تتضاءل .

ان دراسة الفلسفة ، وتقدّم صناعة البرهان بما حسّناه من صناعة النحو ، قد جرّدا اللغة من تلك النبرة الحارّة والعاطفيّة التي كانت جعلتها في البداية على قدر من الفتنة . فمنذ عصر منياليب وفيلوكسان ، استقلّ السمفونيون عن الشعراء بعد أن كانوا خدما لهم وبعد أن كانوا لا يشتغلون إلا تحت اشرافهم وتحت املائهم ان صحّ التعبير . ان انحلال تلك الرابطة هو ما تشتكي منه الموسيقى بكل تلك

المرارة في احدى مسرحيّات فيريقراطس ، احتفظ لنا منها فلوتاركس بذلك المقطع . وهكذا فعندما لاح أن الموسيقى لم تعد ملتحمة بالقول ، بدأ انزواؤها من حيث لا تدري الى حياة منعزلة ، وأضحت الموسيقى أكثر استقلالا عن الكلمات . إذ ذاك انقطعت كذلك شيئا فشيئا تلك العجائب التي كانت أعطتها عندما لم تكن غير نبرة الشعر وتناغمه ، وعندما كانت تمنح للشعر على العواطف سلطانا لم تعد الكلمة من بعد ذلك تمارسه الا على العقل . لذلك فما كادت اليونان تمتلىء سفاسطة وفلاسفة حتى غاب عن الأنظار الشعراء والموسيقيون العظام . لقد فقد الناس فن التأثير لأنهم اعتنوا بفن الاقناع . ولقد عمد أفلاطون بنفسه ، لفرط غيرته من هوميروس ومن أوريبيد ، الى ذمّ هذا ولم يقدر على محاكاة ذاك .

وسرعان ما انضاف الى تأثير الفلسفة تأثير العبوديّة . لقد فقدت اليونان ، وهي في الأغلال ، ذاك القبس الذي لا يبعث الدّفء بغير النفوس الحرّة ؛ ولم تعد تجد لمدح طغاتها تلك النبرة التي كانت تمدح بها أبطالها . وزاد الاختلاط بالرّوم في انهاك ما بقي للغة من التناغم ومن النّبر . فلقد أضرّت اللاتينية بالموسيقى بتبنّيها لها ، وذلك لأنّها لغة أصمّ من اليونانية وأقل موسيقية منها . كما عكّر ما كان رائجا في العاصمة من الغناء ما بقي منه في الولايات ، وأساءت مسارح روما الى مسارح أثينا . وفي الوقت الذي كان فيه نيرون يغنم الجوائز ، انقطعت جدارة أثينا بها . فإذا النّغم عينه ، قد قسّم على اللغتين ، فأمسى أقلّ ملاءمة لهذه ولتلك.

وأخيرا حدثت الفاجعة التي زلزلت تقدّم الفكر البشري من غير أن ترفع عنه ما ولّده من الرّذائل : لقد فقدت أوروبا ، عندما اجتاحها الهمج واستعبدها الجهلة ، فقدت في الآن نفسه علومها وفنونها وفقدت الآلة الكلية التي تستخدمها هذه وتلك ، وأقصد اللغة المتناغمة والمكتملة . لقد روّض هؤلاء الرّجال الأجلاف الذين أنجبهم الشمال كل الآذان على خشونة لسانهم . لقد كانت لغتهم الغليظة التي لا نبر فيها دواية من غير أن تكون رنّانة ...

ولقد كان الامبراطور جوليان يقارن كلام الغاليين بنقنقة الضفادع . فلقد كان في كل مقاطعهم من الخشونة بقدر ما كان في أصواتهم من الخنين والصّمم . فما كان بوسعهم أكثر من أن يضفوا على غنائهم ضربا واحدا من الجمال بأن يشدّدوا على المصوّتات مخفين بذلك كثافة الصوامت وخشونتها .

ان هذا الغناء الصّاخب الذي اقترن بعدم مطواعيّة العضو ، قد أجبر هؤلاء القادمين الجدد والشعوب التي استولوا عليها فقلّدتهم ، على أن يتمهّلوا في اخراج الأصوات حتّى يسمعوها لغيرهم . ان عسر النّطق وتشديد الأصوات ساهما أيضا في افراغ النغم من كل احساس بالوزن والايقاع . ولمّا كان أعسر ما في النّطق هو دائما الانتقال من صوت إلى صوت ، فلم يكن عند النّاس أحسن من أن يقفوا عند كلّ صوت بأقصى ما يمكن ، وأن ينفخوا فيه وأن يفجّروه على قدر طاقتهم . وسرعان ما أصبح الغناء مجرّد تسلسل بطيء وممِلّ من الأصوات الفاترة أو الصّارخة التي لا حلاوة فيها ولا وزن ولا لطف . ولئن قال بعض العلماء بضرورة مراعاة المصوتات الممدودة والمصوّتات القصيرة في الغناء اللّاتيني ، فإنّه من المؤكّد على الأقلّ أنهم قد غنّوا أبيات الشعر كما لو كانت نثرا وأن الأمر لم يعد متعلّقا عندهم لا بمفاصل البيت الشعري ولا بايقاعه ولا بأيّ نوع من أنواع الغناء الموزون .

وهكذا آل الأمر بالغناء ، بعد أن جرّد من كل نغم ، وبعد أن أصبح منحصرا في قوّة الأصوات وفي مدّتها الزمنية الى أن أوحى بوسائل جعله أكثر رنّة بواسطة التساوقات الصوتية . وصورة ذلك أن جملة من الأصوات ما انفكت ترافق تصادي أصوات غير محدودة المدّة ، قد اهتدت صدفة الى بعض التسويات التي أحدثت من الصخب المتزايد ما بدا فاتنا : هكذا ابتدأت ممارسة المسايرة اللحنية والطباق اللحني .

واني لأجهل عدد القرون التي استغرقها جدال الموسيقيين حول مسائل فارغة إنّما حملهم على اثارتها مفعول معروف لمبدا مجهول . وان أشدّ القراء صبرا لن يصبر على الهذر الذي يتواصل في كتاب جان دي موريس على امتداد ثمانية فصول أو عشرة ، لكي يذكر هل أن الخماسيّة هي التي يجب أن تكون قرارا في

مسافة الديوان المقسومة الى تساوقين صوتيّين ، أم هل هي الرباعية . واننا لنجد مرّة أخرى ، وبعد أربعمائة سنة تعديدات لا تقلّ إضجاراً عن سابقتها ويخصصها بونتامبي لكل الدرجات الغليظة التي لا بدّ أن تحمل السداسيّة عوضا عن الخماسيّة . ولكنّ التصاوت قد سار شيئا فشيئا على الطريق التي رسمها له التحليل الى ان تمّ للمقام الصغير وللتنافرات الصوتية أن تقحم فيه التحكم الذي يعجّ به ، والذي لا يمنعنا من رؤيته الا الحكم المسبّق [27] .

فلمّا تم نسيان النغم ، وتمّ تحوّل انتباه الموسيقي كليا نحو التصاوت ، تركّز كل شيء رويدا رويدا على هذا الشيء الجديد . فأصبح للاجناس وللمقامات وللطبقة ولكل شيء وجوه جديدة : فلقد قامت التسلسلات التصاوتية بتعديل تردّدات القطع . ولمّا استولت هذه التردّدات على اسم النّغم ، لم يكن بالامكان أن نتجاهل في هذا النغم الجديد ملامح الأمّ التي ولدته . ولما تم لنسقنا الموسيقى أن أصبح هكذا شيئا فشيئا نسقا تصاوتيّا صرفا ، فليس من العجب أن يكون نسق كلامنا قد تضرّر منه ، وأن تكون الموسيقى قد فقدت عندنا كل طاقتها .

هكذا أصبح الغناء رويدا رويدا فنّا تامّ الانفصال عن الكلمة التي هو منها . وهكذا أنستنا مصاوتات الصوت انعطافات الصوت ، وهكذا أخيرا وجدت الموسيقى نفسها ، لما كانت محصورة في المفعول الحسّي الصرف لتعاضد الاهتزازات ، محرومة مما خلّفته من الآثار الأدبيّة عندما كانت صوت الطّبيعة مرتين .

الفصل العشرون

في نسبة اللّغات إلى الحكومات

ليست هذه التقدمات اتفاقا او تحكما . بل هي مرتبطة بتقلب أحوال الأشياء . فاللغات تتكون بالطبع من حاجات البشر ، وهي تتبدّل وتتغير بحسب تبدّل الحاجات عينها . ففي الأزمنة القديمة ، عندما كان الاقناع بمثابة القوّة العامة ، كانت الفصاحة ضرورية فما فائدتها اليوم وقد حلّت القوّة العامّة محل الاقناع ؟ فليس يحتاج المرء الى فنّ أو إلى صورة لكي يقول : ذلك ما يرضيني . فأيّ الخطب باقية إذن لتلقى على مسامع الجمهور المتجمّع ؟ هل هي المواعظ ؟ وما شأن أولئك الذين يلقونها باقناع الجمهور ، ما دام الجمهور ليس هو الذي يعيّن من يتمتّع بالامتيازات : لقد صارت اللغات الشعبية عندنا عديمة الفائدة تماما بقدر عدم فائدة الفصاحة . لقد أدركت المجتمعات شكلها النهائي ، فلا يمكن للمرء أن يغيّر فيه شيئا إلا بالمدفع والرّيالات ، ولمّا لم يعد لنا ما نقوله للجمهور فيما عدا : « هاتوا المال ! » فاننا نقوله بواسطة خزائن نجعلها في زوايا الأنهج ، أو بواسطة الجنود في البيوت . فلا يجب أن نجمع أحدا لهذا الغرض . بل

لا بدّ على العكس من ذلك أن نفرّق بين الرعايا ، فتلك أولى قواعد السياسة الحديثة .

ثمّة لغات تساعد على الحريّة ، وهي اللغات الرنّانة والموزونة والمتناغمة التي يمكن أن نميّز ما يقال فيها من بعيد جدّا . أما لغاتنا فقد جعلت لطنين الدواوين . ان دعاتنا يعذّبون أنفسهم ، ويتصبّب العرق منهم سيولا في المعابد ، من غير أن نعرف شيئا ممّا قالوا . وانهم ، بعد أن ينهكوا أنفسهم صراخا لمدة ساعة كاملة ، ليخرجون من الأريكة أنصاف موتى . وأكيد أن الأمر ما كان يستحق كل هذا العناء .

وعند القدماء ، فقد كان المرء يبلغ صوته بسهولة الى الجمهور في الساحة العامّة ، وكان يتكلّم يوما كاملا فلا يتحرّج . لقد كان القوّاد يخطبون في جيوشهم فكانوا يسمعون وما كانوا ينهكون أبدا . ولكنّ المؤرّخين المحدثين الذين أرادوا ادراج تلك الخطب في تواريخهم قد استهزىء بهم . فلنتخيّل رجلا يخطب بالفرنسية في جمهور باريس في ساحة فاندوم . فليصرخ ملء شدقيه . سيسمعون أنه يصرخ ، ولكنهم لن يتميّزوا كلمة واحدة . لقد كان هيرودوتس يقرأ تاريخه على جماهير اليونان المجتمعة في الهواء الطلق ، وكان كل شيء يدوى بالتصفيق .

أما اليوم ، فان الاكاديمي الذي يقرأ رسالة في يوم تجمّع عامّ ، لا يكاد يسمع في طرف القاعة . واذا كان دجّالو الساحات اقلّ في فرنسا منهم في ايطاليا ، فليس ذلك لأن الاستماع اليهم في فرنسا أقل ممّا هو في ايطاليا ، ولكن ذلك راجع الى أنه لا يستمع اليهم جيّدا . ويظنّ السيد دالمبار أنه بالامكان أن نعرض الالقاء الفرنسي على الطريقة الايطالية . إذن لا بدّ من عرضه على الأذن ، والا لم نسمع شيئا .

ولكنّي أقول أن كل لغة لا يمكننا أن نبلغ بها صوتنا الى الجمهور المتجمّع ، هي لغة عبودية . وليس يمكن لأي شعب أن يضل حرّا وأن يتكلم تلك اللغة في نفس الوقت .

سأنهي هذه التأمّلات السطحيّة ، التي يمكنها مع ذلك أن تولّد تأمّلات أعمق منها ، بذكر المقطع الذي أوحى لي بها :

« لعلّه يكون مادّة نظر فلسفي بعيد أن نلاحظ في الواقع وأن نبيّن بواسطة أمثلة.، كيف أن طبع شعب ما وعاداته وهمومه تؤثّر في لغته » [28] .

الهوامش

(1) لم يبق منها (على قيد الحياة) الا ستمائة رجل، بلا نساء ولا أطفال .

(2) لقد بينت في موضع آخر لماذا يؤثر فينا التظاهر بالاحزان اكثر مما تؤثر فينا الأحزان الحقيقية، كمثل من يبكي اثناء عرض مسرحية مأسوية في حين أنه لم يشفق في حياته على اي مسكين. ان اختراع المسرح لهو اختراع رائع ينتفخ منه كبرياؤنا بكل الفضائل التي ليست لنا في الحقيقة أصلا .

(3) « SALAM » هي ألوان عديدة من أبسط الأشياء ، كبرتقالة أو رداء أو فحم أو غيرها من الأشياء التي يكون لارسالها معنى معروف عند المحبّين داخل البلد الذي تتداول فيه هذه اللغة .

(4) يقال ان في العربية أكثر من ألف كلمة مختلفة للتعبير عن « الجمل » ، وأكثر من مائة للتعبير عن « السّيف » ، إلخ .

(5) يقول شاردان : « ان بعض الناس يندهشون من أنه يمكن بشكلين اثنين ان نعمل كل هذه الحروف . ولكني فيما يخصني لا ارى سببا لمثل هذا الاندهاش القوي ، بما أن حروف أبجديتنا التي عددها ثلاثة وعشرون حرفا ، ليست في الحقيقة مركبة الا من خطّين ، المستقيم والدّائري . ويعني ذلك انه يمكننا ان نعمل كل الحروف التي تتكون منها كلماتنا بواسطة حرف « C » وحرف « I »

(6) يبدو هذا الحرف شديد الجمال وليس فيه غموض أو همجيّة ، لكأن الحروف قد طليت ذهبا ، إذ مازال يظهر في الكثير منها ، وخاصة في الغليظة ، أثر الذّهب . وأكيد أن عدم اتيان الهواء على ذلك التذهيب طيلة كل هذه القرون هو أمر عجيب لا يمكن تصوره . وعلى كل فلا عجب في أن عجز كل علماء العالم على فهم هذه الكتابة فهي لا تشبه أيّة واحدة مما وقع بين أيدينا من الكتابات ، في

حين أن كل الكتابات المعروفة الى اليوم تتشابه الى حدّ ما ، باستثناء الكتابة الصينية وتبدو كأنها راجعة الى نفس الأصل . ولعل الاغرب في ذلك هو أن المجوس ، الذين تبقوا من الفرس القدامى ، واحتفظوا بديانتهم ، ليسوا بأعرف منّا بهذه الأحرف ، وليس ذلك فقط بل ان حروفهم ليست بأشبه بتلك الحروف من حروفنا . فينتج عن ذلك أن هذه الحروف هي اما من رموز القبلانية ، وهو غير محتمل فهذا الحرف هو الحرف المشترك والطبيعي لهذه الآثار في كل المواضع ، في حين أن رمز القبلانية ليس ثمّة غيره بعين ما له من النقش . أو أنها من القدم بحيث لا نكاد نجرؤ على قوله « وفعلا فلعل ما يجعلنا شاردان نفترضه من هذا المقطع هو أن هذه الحروف قد كانت منسية بعد في زمن قورش والمجوس ، وأن ضآلة معرفتهم بها إذ ذاك كضآلة معرفتنا بها الآن .

(7) أعتبر القرطاجنيّين فينقيين ، بما أنهم قد كانوا مستعمرة من مستعمرات صور .

(8) فوزانياس . لقد كتب اللاتينيون في البداية كذلك . ومن ثم جاءت كلمة « **Versus** » حسب ماريوس فيكتورينوس .

(9) **Vocales quas grœce septem, Romulus sex, usus posterior quinque commemorat, y velut grœca rejecta. Mart. Capel I. III.**

(10) ولعلّ الوسيلة التي تكون أحسنها والتي لا يكون فيها هذا العيب ، هي التنقيط لو تركوه على حال أقل سوءا مما هو عليه . فلماذا ليس لنا مثلا نقطة النداء ، في حين أن نقطة الاستفهام التي لدينا أقل لزوما بكثير . فان مجرد التركيب ينبؤنا بما اذا كان ثمة سؤال أم لا ، وذلك على الاقل في لغتنا . فعبارة « هل تأتي ؟ » وعبارة « أنت تأتي » ليستا نفس الشيء . ولكن كيف يمكن لنا أن نميّز كتابيّا بين انسان نسمّيه وانسان نناديه . فهذا التباس قد كانت ترفعه نقطة النداء . وعين هذا الالتباس نجده في السخرية ، عندما لا تشعرنا اللهجة بذلك .

(11) يزعم بعض العلماء ، خلافا للرأي العام وخلافا للدليل المستمد من كل المخطوطات القديمة ، أن اليونانيين قد عرفوا في الكتابة تلك العلامات التي نسميها نبرات ، وأنهم قد مارسوها . ويؤسسون هذا الراي على مقطعين سأوردهما كما هما معا ، حتى يتمكن القارىء من الحكم على معناهما الحقيقي .

فها هو المقطع الأول ، وهو لشيشرون ، من كتابه في الخطيب الكتاب **III** ، رقم 44 :

Hanc diligentiam subsequitur modus etiam et forma verborum, quod jam vercor ne huic Catulo vidatur esse puerile. Versus enim veteres illi in hac soluta oratione propemodum, hoc est, numeros quosdam, nobis esse adhibendos putaverunt. Interspirationis enim non defatifationis nostrœ, neque libraiorum notis sed verborum est sententiarum modo, interpunctas clausulas in orationibus esse vqluerunt : idque princeps Isocrates institaisse fertur, ut inconditam antiquorum dicendi consuetudinem, delectationis atque aurium causa (quemadmodum scribit dis cipulus ejus Naucrates), numeris adstringeret .

Namque hœc duo, musici, qui erant quondam iidempoıetœ,machinati ad voluptatem sunt versum, atque cantum, ut et verborum numero, et vocum modo,

delectatione vincerent aurium satietatem. Hœc igitur duo, vocis dico moderationem, et verborum conclusionem quoad vrationis severitas pati possit, a poietica ad eloquentiam traducenda duxerunt

وها هو المقطع الثاني ، وهو لا يزيدور ، من مؤلفه الأصول الكتاب I ، الفصل 20 :

Prœterea quœdam sententiarum notœ apud celeberrimos auctores fuerunt, quasque antiqui ad distinctionem scripturarum carminibus et historus apposuerunt. Nota est figura propria in litterœ modum posita ad demonstrandum unamquamque verbi sententiarumque ac versuum rationem. Notœ autem versibus appenuntur numero XXVI, quœ sunt nominibus infra scriptis, etc.

وفيما يخصني فاني أرى في ذلك ان الناسخين المهرة قد كانوا يمارسون زمن شيشرون فصل الكلمات ، وبعض العلامات التي تضاهي تنقيطنا . كما أرى فيه ايضا اختراع العدد وتفخيم النثر ، المنسوب الى ايزقراطس . ولكني لا أرى فيه ابدا العلامات المكتوبة ، والنبرات : وحتى ان رأيتها ، فانه لا يمكن ان نستنتج من ذلك الا امرا لا أناقش فيه ، وهو يندرج بغير عناء ضمن مبادئي ، وهذا الأمر هو أن الرومان عندما شرعوا في دراسة اليونانية ، فان النساخ قد عمدوا الى اختراع علامات النبرات ، والتشديد والايقاع لكي يبينوا لهم وجه نطقها . ولا ينتج عن ذلك أبدا أن هذه العلامات قد كانت مستعملة لدى اليونان الذين لم تكن بهم أيّة حاجة اليها .

(12) السيد دوكلو ، ملاحظات حول النحو العام والمعقول ص : 30

(13) وقد يظن ان الايطاليين يميزون بتلك النبرة عينها مثلا é الفعل من e أداة الربط . ولكن الاول يتميز في الأذن بصوت أقوى وأشد ، مما يجعل النبرة التي تطبعه نبرة صوتية . وهذه ملاحظة ما كان لكتاب بونماتيي حق في أن لا يبديها .

(14) أطلق عبارة « الأزمنة الأولى » على أزمنة تفرق الناس ، بقطع النظر عن العصر البشري الذي نضبط فيه فترة ذلك التفرق .

(15) ليس أصل اللغات الحقيقية أصلا منزليا . فلا يمكن ان تتأسس هذه اللغات الا على تواطؤ أعم وأدوم . ان متوحشي امريكا يكادون لا يتكلمون الا خارج بيوتهم . فكل واحد منهم يلازم الصمت في كوخه ، ويتحادث الى عائلته بالاشارات . وهذه الاشارات قليلة التردد لأن المتوحش اقل حيرة واقل تلهفا من الأوروبي ، ولانه ليس له مثل الأوروبي من الحاجات ، وانه يعمل على تحقيقها بنفسه .

(16) ان مهنة الصياد ليست مواتية أصلا للسكان ، وان هذه الملاحظة التي أبديت عندما سكن القراصنة جزرسان دومانغ . والسلحفاة ، قد دعمتها حالة امريكا الشمالية ، فاننا لم نر أبدا ان مؤسس امة كبيرة قد كان صيادا بصفة قارة. بل كانوا كلهم فلاحين أو رعاة. فلا بدّ اذن ان لا ننظر الى الصيد كمورد عيش ، بقدر ما ننظر اليه كمكمل ثانوي للحالة الرعوية .

(17) ان الانسان كسول بالطبع الى حدّ لا يتصور . لكأنه لا يعيش الا للنوم والخمول والجمود ، ولا يكاد يخطر بباله أن يحرك نفسه لكي لا يموت جوعا . وليس ثمة ما يستديم حب المتوحشين لحالتهم تلك أكثر من حلاوة ذلك الخمول . فان الاهواء التي تجعل الانسان حائرا ، حذرا وناشطا ، لا تتولد الا في

المجتمع . فاول ما يهواه الانسان بعد بقائه انما هو أن لا يعمل شيئا . واذا ما تأملنا جيدا ، فاننا نجد الامر كذلك حتى عندنا . فكل من يعمل انما يبتغي الحصول على الراحة . فالكسل هنا ايضا هو الذي يجعلنا مجتهدين .

(18) ان عبارات « الأصيل » هذه لا تعني الا ان أول من يسكن البلاد قد كانوا متوحشين ، لا مجتمع لهم ولا قوانين ولا تقاليد وانهم قد عمروا الأرض قبل ان يتكلموا .

(19) ان النار تمنح الحيوانات كما تمنح الانسان سعادة كبرى ، عندما تكون قد تعودت رؤيتها وقد تذوقت حرارتها الحلوة. بل ولعل حاجتها اليها لا تكون في بعض الأحيان باقل من حاجتنا نحن اليها ، على الأقل لتدفئة صغارها .

ولكننا لم نسمع قط من يقول ان حيوانا منزليا ما ، بريا كان او اهليا ، قد اكتسب من الحيلة ما مكنه من ان يصنع نارا ولو بتقليدنا . ها هي اذن تلك الكائنات المتعلقة التي تكون امام الانسان مجتمعا هاربا ، على ما يقولون ، والتي لم يرتفع ذكاؤها — مع ذلك — الى ان تستخرج شرارات من النار من حصاة ، وان تحتفظ بها أو أن تحتفظ على الاقل ببعض النيران المتروكة . ليت شعري ، ان الفلاسفة ليسخرون منا بكل وضوح . واننا لنرى أنهم بما يكتبون يعتبروننا من البهائم .

(20) انظر مثال هذه وتلك في الفصل **XXI** من سفر التكوين بين ابراهيم وابي مالك ، فيما يتعلق بالبشر .

(21) يزعم بعضهم أن مختلف انواع الحيوان تظل من تلقاء نفسها في تأرجح دائم يمثل توازنها ، وذلك بموجب ضرب من الفعل ورد الفعل الطبيعيين . فعندما يكون النوع المفترس قد تكاثر بما يتجاوز المطلوب ، على حساب النوع المفترس ، إذ ذاك فان النوع الأول مضطر الى التناقص ، لانه لم يجد قوته ، فيترك بذلك للنوع الثاني من الوقت ما يكفي للتوالد من جديد ، ويستمر ذلك الى ان يتوفر من هذا النوع قوت كثير للنوع الاخر ، فيتضاءل النوع المفترس من جديد في حين يتكاثر النوع المفترس مرة اخرى . ولكن مثل هذا التأرجح لا يبدو محتملا ، لانه لا بدّ اذ ذاك أن يوجد في هذا النسق وقت يتزايد فيه النوع الذي يلعب دور الفريسة ، ويتناقص فيه النوع الذي يقتات منه . وهو ما يبدو مناقضا لكل معقول .

(22) لقد كان ضروريا ان يتزوج الرجال الأول من اخواتهم . لقد تمكنت هذه العادة من أن تستمر داخل بساطه نطاق العادات الأولى ، من دون حرج ، وذلك طالما بقيت العائلات منعزلة وحتى بعد تجمع أقدم الشعوب ، ولكن القانون الذي أطاح بها لا يقل قداسة عنها لانه من صنع الانسان . وأولئك الذين لا يعتبرونه الا من حيث ما يقيمه من الروابط بين العائلات ، لا يرون منه أهم الجوانب . فلو توقّف مثل هذا القانون المقدس عن مخاطبة القلب وعن ضبط الحواس مع ما يفرضه التعامل المنزلي بين الجنسين من التعود ، لما بقي بين الناس نزاهة ، ولعجلت اشنع العادات بالقضاء على الجنس البشري .

(23) اللغة التركية لغة شمالية .

(24) سترابون ، الجغرافيا ، الكتاب I .

(25) **Archytas atque Aristoxenes etiam subiectam grammaticen musicœ putaverunt, et eosdem utriusque rei prœceptores fuisse... Tum Eupolis, apud quem Prodamus et**

musicen et litteras docet. Et Maricas, qui est Ilyperbolus, nihil se ex musicis scire nisi litteras confitetur. Quintil lib I. cap X.

(26) ما من شك في انه لا بد لنا طرح قسط المبالغة اليونانية . ولكن المبالغة في هذا الطرح الى حد طمس كل الفروق هي مبالغة في الثقة بالحكم المسبق الحديث . يقول القس تراسون : « عندما بلغت موسيقى اليونان ، أيام أمفيون وأورفي ، ما بلغته اليوم في أبعد المدن عن العاصمة ، إذ ذاك كانت توقف تدفق الأنهار ، وينحني لها السنديان وتتزلزل منها الصخور . وقد بلغت اليوم قمة عالية جدا من الكمال ، اذ يحبها الناس كثيرا ، ويتعمقون في فهم مظاهر جمالها ، ولكنها لم تعد تحرك شيئا في مكانه . ذلك ما كان أيضا من أمر شعر ميروس ، وهو الشاعر الذي ولد في تلك الأزمان التيمازالت تحمل اثار طفولة الفكر البشري اذا ما قارناها بالازمنة التي تلتها . لقد سكر الناس بأبياته الشعرية ، ولكنهم يكتفون اليوم بتذوق أبيات الشعراء المجيدين وبالحكم عليها » . لا ينكر أحد أن القسّ تراسون قد كان على شيء من الحكمة أحيانا ولكنه من المؤكد انه لم يظهر من ذلك شيئا في هذا المقطع .

(27) يؤسّس السيد رامو ، بارجاعه كل التصاوت الى هذا المبدا البسيط الذي هو تصويت الأوتار في المنازل التامّة التي تنقسم اليها ، يؤسس المقام الصغير وتنافر الاصوات على تجربته المزعومة التي تبين ان الوتر المصوّت يهزّ عند الحركة أوتارا أخرى أطول منه وذلك الى حدّ درجته الكبرى الثانية عشرة والسابعة عشرة قرارا . وحسب رأيه فان هذه الأوتار تهتز على كامل طولها ولكنها لا تصوت . هي ذي ، فيما يبدو لي ، فيزياء فريدة ، لكأننا نقول ان الشمس تلمع ولكننا لا نرى شيئا .

ان هذه الأوتار ، لما كانت لا ترجع الاصوت الدرجة الاحد ، لانها تنقسم وتهتز وتصوت عند تصاديها، تدغم صوت هذه الدرجة بصوتها هي فتبدو وكأنها لا ترجع اي صوت. ان الخطأ يتمثل في الظن باننا نرى هذه الأوتار تهتز على كامل طولها ، وفي عدم ملاحظة العقد ملاحظة جيّدة ، ان وترين مصوتين مكونين لمسافة تصاوتية ما،يمكنهما ان تسمعا صوتهما الاساسي قرارا، حتى اذا ما لم يكن ثمة وتر ثالث. وهذه هي تجربة تارتيني المعروفة والمؤكدة. ولكن الوتر اذا كان بمفرده ليس له من صوت أساسي غير صوته ، وهو لا يجعل الأوتار الاخرى تصوت أو تهتز ، بل تصاديه ومنازله . ولما لم يكن للصوت من سبب غير اهتزازات الجسم المصوت ، ولما كان السبب كلما مارس سببيته بحرية ، تلاه، دائما المفعول ، فان فصل الاهتزازات عن التصويت هو عبث .

(28) ملاحظات حول النحو العام والمعقول ، بقلم السيد دوكلو ، ص : 2 .

ملحـــق

بأهمّ المصطلحات مشفوعة بما ارتأيناه لها من التّرجمة

الترجمة المقترحة	المصطلح بالفرنسية
	A
النبرة	Accent
التسوية	Accord
التمفصل ـــ التقطيع	Articulation
	C
الغناء	Chant
المفتاح	Clavier
الفاصلة	Comma
التساوق الصوتي	Consonnance
الصامت ، الحرف الصامت	Consonne
الطباق اللحني	Contrepoint

D	
Diagramme	الرسم البياني
Discant	المسايرة اللحنية
Dissonnance	التنافر الصوتي
G	
Genre enharmonique	اللون التجانسي
Glotte	الزردمة ــ الحنجرة
Gosier	الحنجرة
H	
Harmonie	التصاوت
I	
Inflexion	الانعطاف
Intervalle	المسافة
L	
Langue	اللغة ــ الكلام ــ اللسان
M	
Marche dialonique	الدرجة الابعادية
Marche fondamèntale	الدرجة الاساسية
Mélodie	النّغم
Mélodie harmonique	النّغم التصاوتي
Mélodie orale	النغم الكلامي
Métaphore	المجاز
Mode	المقام
Mode majeur	المقام الكبير
Mode mineur	المقام الصغير
Modification	التغاير

N	
Notation	الترقيم
O	
Octave	الدّيوان
Onomatopée	الحاكية الصوتية
P	
Palais	الحنك
Passions	الأهواء ـــ العواطف
Prosodie	العروض
R	
Rythme	الايقاع
S	
Son	الصوت
Sonorité	الرنّة ـــ التصويت
Système	النسق
T	
Tétracorde	الرباعية
Ton mineur	البعد الصغير
V	
Voyelle brève	التصويت (المصوّت) القصير
Voyelle longue	التصويت (المصوّت) الممدود

المحتـــوى